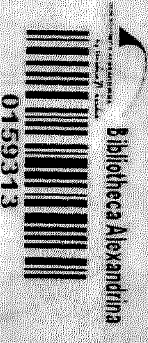
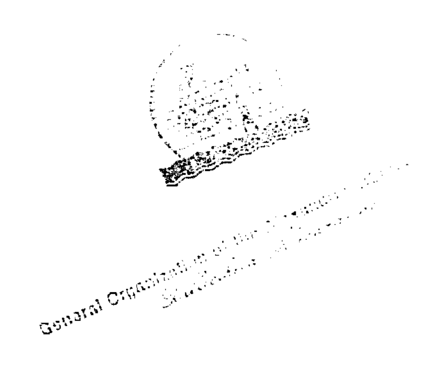
التوبة

للحارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣هـ
وأحكام التوبة للإمام النابلسي



تحقيق
د. أحمد عطا

دار الفضيلة



بدء من أناب إلى الله

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير
الإدارة، القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة - ت ٢٢٢٢٦٦٢ - فاكس ٢٢٢٢٦٦٢
المكتبة، ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٢١
دولة الإمارات، دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

تحقيق
عبد القادر أحمد عطا



التوبة

للحارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣ هـ

وأحكام التوبة للإمام النابلسي

دار الفضيلة





المحاسبي الإمام

نشأته :

فى أوائل النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى على وجه التقريب ولد الإمام الجليل الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي فى البصرة . من أب كان على جانب كبير من الثراء ، وجانب غير قليل من الثقافة ، أهله لأن يكون حراً فى اختيار مذهبه الاعتقادى بعد مقارنة وموازنة ، حتى استقر على رأى (القدرية) فاتخذه طريقاً ومنهجاً لتفكيره وعقيدته.

ولا تحدثنا المصادر عن أمه ، إلا أن حياتها مع أبيه كانت مستقرة وهادئة فى الظاهر رغم خروجه عن مذهب أهل السنة والجماعة ، ولكن الأحداث ربما أفصحت عن ضيقها وتبرمها بشذوذ زوجها ، حتى طالبه ابنه (الحارث) بطلاقها لأنها على دين وهو على دين غيره ، وكان ذلك على مرأى من الناس عند باب الطاق فى بغداد بعد أن كبر الحارث وشارف الرجولة .

فى أحضان الثراء وحرية الفكر ، وبين ربوع البصرة مجتمع العلماء ، وميدان السباق الذى تنافسها فى حلبته مدينة الكوفة فى مختلف العلوم والفنون نشأ الحارث بن أسد ناعم البال ، هادىء النفس ، حراً

فى حركته العقلية يوجهها كيف يشاء دون حجر ولا إلزام برأى معين ، ولا بحلقة من حلقات العلم التى كانت تموج بها الكوفة آنذاك .

ولعل الحرية الفكرية التى أظلت بيت المحاسبى مع هدوء العيش كانا سبباً فى توليد طاقة عظمى من الذكاء عند المحاسبى ، تواكبها جذوة لامعة من التطلع إلى الحق ، وإلى الإسهام فى القضاء على الأزمة الفكرية والسلوكية التى حاقت بالناس فى عصره ، وقبل كل شىء إلى إشباع (غريزة) العقل بما يرضى عنه شاب كالحارث الذكى اللماح المتطلع البعيد الغور .

شخصيته وأزمته النفسية :

كثيراً ما نرى علماء العصر الحديث يصطنعون — كما يقول المحاسبى فى كتابه « الوصايا » الأتباع ، ويعادون معارضيهم ، وينفقون من دينهم لجذب أنظار الناس إليهم ، والظفر بالجاه والمال فى الدنيا ، ثم يزيدون على ما فطن إليه المحاسبى من ذرائع الضلال التى تمرسوا بها : أن طوفوا حول الموائد والمذاهب ، فأنسوا إلى أحفلها بالملذات ، وألمعها ضوءاً ، فاقتربوا منها ، وفرضوا أنفسهم عليها ، واستعذبوا كل الذل فى سبيل إرضاء أصحابها ، واستخدموا كل الذكاء فى الدعوة إلى ما يذهبون إليه من آراء فجة لعلهم بذلك يصبحون حديث الناس على طريق الشهرة .

فلئن كان هنالك كثير من هؤلاء فلا عجب أن اشتهروا بأموال أعداء الإسلام ، ووسائل إعلامهم ، أما أن يشتهر رجل هارب منذ

شبابه إلى شيخوخته من كل ما فيه مظنة الشهرة ، هاجر لمجالسها ولباسها وكل ما يؤدى إليها من الأعمال والخواطر فهذا هو موطن الفخر والعجب العجاب .

فبعد أن هجر الحارث أباه لأنه قدرى المذهب ، وطالبه بطلاق أمه لأنه كان يرى كفر القدرية — اشتدت به الفاقة ، ومسه الجوع وبذاذة اللباس، حتى لقد كان يصاب بالاعياء الذى يكاد يقعده عن الحركة من أثر الجوع كما تحدث بذلك عنه تلميذه الجنيد بن محمد البغدادى .

هذا الرجل على بساطته هذه ، وصفه الإمام أحمد بن حنبل بأنه « كالأسد المرابط » . وغشى عليه بعد سماعه يتكلم بين تلاميذه من حيث لا يراه ، وقال : « ما رأيت فى الحقائق مثل هذا الرجل ، وما رأيت مثل تلاميذه معه » .

لقد عاش بين مغريات عصره ، بل ومغريات بيته غريباً ، لا تستهويه نزوة ، ولا تقهره شهوة ولا يتجاوب فى أرجاء قلبه شىء غير الحق والعدل مع نفسه ومع غيره ، والبحث عنه بين مناهج العلم وقواعد السلوك . فهو غنى الباطن ، متين الذات ، ليس بمحتاج إلى ما يحتاج إليه فارغ الباطن المهتز الذات من وسائل التكميل الصناعية لشخصية ممزقة . بل هو سعيد بالفقر ، شديد الحبور بالجوع ، عظيم الثقة بالله ، ناعم البال فى ظلال الرضا ، متين الشخصية بما يتألق فى قلبه من عمق البصيرة وحدتها .

لم يرض المحاسبي فى شبابه عن مناهج التعليم التقليدية التى كانت

سائدة فى عصره ، وبدأ يزنها بميزان الحق ليدرك مدى صلاحيتها ، دون أن يمضى فيما مضى فيه الناس وهو مغمض البصيرة والبصر ، وكانت أولى دراساته لمناهج التعليم فى عصره مقرونة بحالة من الانطواء والضيق والحيرة ، تشبه أن تكون أزمة نفسية ، أو مخاضاً جديداً لشخصية جديدة لا تمارس شيئاً ، ولا تسلم بمقولة ولا معقولة إلا بعد الفحص والتدقيق ، وقد سجل ظواهر أزمته هذه فى أول كتابه «الوصايا»

كان هدفه الوصول إلى طريق النجاة ، وإلى رضوان الله ، فلم يجد ذلك الأمل العظيم فى أى حلقة من حلقات العلم يسودها الجدل والخلاف ، ثم انتهى به المطاف إلى من سماهم « الأخفياء الأتقياء » السائرون على قدم النبوة . وهنا يشرق الأمل فى نفس الرجل ، ويضىء قلبه باليقين . ولكنه لا يهجر علوم عصره إلا حين يعتبرها غايات ، وإنما هي عنده وسائل للوصول إلى الغاية ، وهى النجاة ورضوان الله .

من هنا كان صريحاً مع النفس الإنسانية فى كشف ضلالاتها حينما تزين لصاحبها الباطل على صورة الصواب ، وحينما تسول له أن يجعل الوسيلة غاية ، والغاية وسيلة ، فيطلب الدنيا بعمل الآخرة ، وحينما ينافق ذاته وينافق غيره ويرائيهم فى جميع الأعمال ، فيفسد بنفاق النفس وريائها العمل ، إلى آخر ما تعرض له المحاسبى من قضايا النفس البشرية فى كتبه كلها ، ولا سيما فى كتاب التوبة الذى نقدمه الآن للقراء .

المحاسبي والعلماء وأهل الأهواء :

أجمع العلماء على أن المحاسبي كان مناهضاً شديد الوطأة على أهل الأهواء ، نظراً لما منحه الله تعالى من قوة العارضة ، ورجاحة العقل ، والقدرة على النقاش ، وسعة العلم .

قال ابن النديم فى الفهرست : « المحاسبي من الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد ، وكان فقيهاً متكلماً مقدماً ، كتب الحديث ، وعرف مذاهب النساك » .

وقال السبكى فى طبقات الشافعية : « كان إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام ، وكتبه فى هذه العلوم أصول لمن يصنف فيها » .

وقال السمعانى فى الأنساب : « . . له كتب كثيرة فى الزهد ، وفى أصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة » .

وقال عنه القشيرى : « عديم النظير فى زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالا » .

ولقد هاجم المحاسبي كل من خرج عن أهل السنة والجماعة هجوماً ضارياً ، كالمعتزله ، والجهمية ، والمرجئة ، والقدرية ، وغيرهم . فهو يقول فى كتاب الرعاية : « وقد يرى المغتر أن الخطرة داعية إلى طاعة وهى معصية وإلى القدر بتنزيه الله عز وجل ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد . . وكذلك الخطرات التى تدعو إلى تزين القلوب من غير عبادات بالآمال كالقدر ، ورأى جهم ،والرفض ، والاعتزال وغيره» .

ويقول فى لهجة شديدة الحدة : « ومن العباد قوم ضلال قد جمعوا إلى الضلال الكبر ، لا يرون أن أحداً يقول الحق على الله عز وجل غيرهم ، وأنه لا مهتد فى الأرض غيرهم ، وهم الذين يقولون : أن القرآن مخلوق ، والذين يقولون بالوقف ، والذين يقولون باللفظ ، والذين يكذبون بالقدر ، والذين ينكرون أن الله عز وجل يرى فى الآخرة ، فكل هذه الفرق آبقة جائرة عن الطريق » .

هذا هو موقفه من المعتزلة ، وهو موقف الإمام أحمد بن حنبل منهم ولا سيما فيما يتصل بخلق القرآن ، فلماذا هاجمه الإمام أحمد ، وحذر الناس من مجالسته إذن ؟ ؟ ! ! وبالتالى : لماذا لم يقع تحت طائلة التعذيب والاضطهاد كما وقع الإمام أحمد ، وكلاهما مهاجم الاعتزال الذى كان مسيطراً على الحكم زمن المعتصم ؟ ؟ ! ! وكيف ينسب إلى الإمام أحمد — وهو قمة الورع — أن يقول عن المحاسبى كما يروى ابن الجوزى فى تلبيس إبليس : « حذروا عن حارث أشد التحذير ، فالحارث أصل البلية ، جالسه فلان وفلان فأخرجهم إلى رأى جهم » . كيف يقال ذلك عن المحاسبى وهو الذى يهاجم الجهمية فى كتاب الرعاية والوصايا كما نقلنا عنه آنفا ؟ ! ! !

والحق أن قضية المحاسبى وابن حنبل يشوبها كثير من القتام واللبس . ويكفينا حجة على الشك فى كل ما نسب إلى الإمام أحمد فى هذا الصدد ما نقله الذهبى فى الجزء الخامس عشر من كتابه تاريخ الإسلام ، الذى لم يطبع بعد ، أن الإمام أحمد قال : « حذروا عن حارث ، لا توبة لحارث ، يشهدون عليه بالشىء ويجحد » فابن حنبل

الذي يتوقف في الفتوى وإبداء الرأي لمجرد شبهة بسيطة في سند الخبر ، ويتوقف في جرح الراوي إذا كان متردداً بين العدالة والتجريح ، يغلق بيده باب التوبة عن مسلم بينما أبقاه الله مفتوحاً حتى تبلغ الروح الحلقوم ؟ ؟ ؟ هذا مالا يمكن أن يصدقه العقل ، ولا تشهد بصحته الوقائع . أضف إلى ذلك أن الذهبي نفسه حينما روى قصة سماع الإمام أحمد لكلام المحاسبي في منزل إسماعيل السراج دون أن يراه الحارث ، وثناء الإمام أحمد عليه ، قال بعدها : وهذه القصة صحيحة السند ، ولكنها ثقيلة لا تقع على قلبي .

من هنا ندرك تحامل المتأخرين ، وندرك مدى الاستجابة لهذا التحامل في نسبة أقوال إلى الإمام أحمد بن حنبل بعيدة كل البعد عن طريقته ومنهجه وتحفظه الشديد بالنسبة لإصدار الأحكام في شئون الدنيا فضلا عن أحكام الآخرة .

وكل ما يمكن أن يصدق في الخلاف بين المحاسبي وابن حنبل : أن المحاسبي قد نشط في الرد على المعتزلة وغيرهم على طريقة المتكلمين يقارعهم حجة بحجة ، ودليلا بدليل ، فأنكر عليه ابن حنبل ، فقال الحارث : الرد على البدعة فرض . قال أحمد : ولكنك حكيت شبهتهم أولا ، ثم أجبت عنها ، فلم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه .

هو إذن خلاف في منهج المقاومة لبدعة الاعتزال التي كانت قد أنشبت مخالبها في جهاز الحكم زمن المأمون بتأييد قاضي القضاة أحمد

ابن أبي دؤاد ، حتى وصل الأمر إلى المحنة الكبرى زمن المعتصم ، رغم أن وقائع التاريخ تشهد بأن المعتصم لم يكن راغباً فى هذه المحنة ، وإنما كان مدفوعاً إليها دفعاً .

لماذا إذن نجا المحاسبي من محنة القول بخلق القرآن وهو العلم المشار إليه فى بغداد ؟ وهو كذلك عدو المعتزلة اللدود ، المهاجم للقائلين بخلق القرآن ؟

ونقول : أن فتنة الاعتزال التى ثارت منذ عام ٢١١ هـ زمن المأمون حتى عام ٢٣٢ هـ زمن المتوكل لم تجترف فى تيارها كل معارض للقول بخلق القرآن ، ولا كل كاره للاعتزال ، وإنما كانت تستهدف الحصول على مبدأ شرعى يعترف فيه المتخصصون فى السنة والفقه بهذه البدعة ، حتى ينطلق منها زعماؤها إلى القول بجواز التعديل والتطوير فى الشريعة ، من حيث إن أصلها الأول مخلوق لا يتمتع بالقدسية والحصانة من التبديل والتغيير ، شأنه شأن كل النعم المخلوقة لمنفعة الإنسان فى الأرض ، ولم يكن المحاسبي من المتخصصين فى الفقه والسنة ، وإنما كان من الزهاد المتكلمين الفقهاء أهل الحديث ونقد المجتمع ، شأنه شأن غيره من أمثال بشر الحافى والجنيد البغدادى وغيرهما من رجال التصوف .

ولكن الحملة اشتدت على المحاسبي من الحنابلة نظراً لأنه كان شديد الوطأة على العلماء جميعاً فى عصره . فهو يقول : « يغترون بكثرة الرواية ، وحسن الحفظ ، مع تضييع واجب حق الله ، وتخيل نفس أحدهم إليه أن مثله لا يعذب لأنه من العلماء . . فهذه الفرقة الفاجرة

ممن حفظ العلم وأكثر روايته » . إلى كثير جداً من أمثال هذا الهجوم تجده فى كتاب الرعاية ، والوصايا ، والعلم . . اشتد الحنابلة عليه فى عهد المتوكل لأنه اصطنع علم الكلام كالمعتزلة ، وشغب عليه غير الإمام أحمد منهم ، ونسبوه للإمام ، وكاد هذا الهجوم أن يودى بالمحاسبى لولا أنه اعتزل التدريس ولزم بيته بقية عمره .

ولقد برع المحاسبى فى نقد فئات المجتمع من العلماء والقراء والنساك والصوفية والزهاد والتجار والجنود وطلاب العلم براعة منقطعة النظير ، كان من نتائجها تراث هائل من علم النفس الإسلامى الذى مازال ينتظر الكشف والبحث من العلماء . كما أنه برع فى استقصاء علل النفوس ، وشمول النظر وعمقه حتى ليعد فى السابقين إلى علم النفس التحليلى فى العالم كله ، مما يقطع بأنه كان ناقداً للصوفية ، ولم يكن صوفياً مطموس البصيرة كحاطب الليل .

ومات المحاسبى عام ٢٤٣ هـ بعد حياة حافلة بالجهاد والبحث والنظر راضياً بالفقر وهو يجد الثراء فى تركة أبيه التى تنازل عنها لعدم ثقته فى حلها ، رحمه الله رحمة واسعة .

* * *

مؤلفات المحاسبى

أولا ـ المخطوطات :

١ ـ **آداب النفوس** . وهو فى مكتبة جار الله بالأستانة برقم ١١٠١ ، ومن هذه النسخة نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٦٤ تصوف . وفى كوبريللى بالأستانة برقم ٧٢٥ . وفى جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٤٨ عن نسخة ولى الدين .

٢ ـ **أحكام التوبة** . فى دار الكتب المصرية ٣١٩ تصوف عن مكتبة لندن .

٣ ـ **رسالة التصوف** . بلدية الإسكندرية رقم ١٣٢١ ـ ١ ج .

٣ ـ **التنبيه على أعمال القلوب والجوارح** . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن نسخة جار الله بالأستانة .

٤ ـ **الخصال العشرة التى جربها أهل المحاسبة** . دار الكتب المصرية رقم ٤١٨٤ تصوف عن نسخة مكتبة برلين .

٥ ـ **الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجوا بأغنياء الصحابة** . لاللى بالأستانة رقم ٣٦٠٦ ـ ٢٠

٦ ـ **شرح المعرفة وبذل النصيحة** . كوبريللى بالأستانة رقم ١٦٠١ .

شهيد على رقم ١٣٤٥ والأزهرية بمصر رقم ٤١٣٠٩ ، ١٢٠٨ تصوف . ودار الكتب المصرية ٤٠٨٤ تصوف عن برلين .

٧ – **فصل من كتاب العظمة** . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ تصوف عن جار الله بالأستانة .

٨ – **القصد والرجوع إلى الله** . جار الله بالأستانة ١٧٢٨ ، شهيد على ٣٣١٩ .

٩ – **محاسبة النفوس** . برلين ٢٨١٤ ، المتحف البريطانى بلندن ١٢٤٤ .

١٠ – **مختصر المعانى** . البنغال ١١٦٧ .

١١ – **المراقبة والمحاسبة** . مكتبة سوهاج ١٣٦ تصوف .

١٢ – **معاتبة النفوس** . الأزهرية بمصر ١٠٣٩ مجاميع تصوف .

١٣ – **النصيحة للطالبين** . شهيد على ٣٣١٩ .

١٤ – **فهم الصلاة** . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن جار الله .

ثانياً – المخطوطات المفقودة :

١ – **رسالة فى الأخلاق** .

٢ – **أخلاق الحكيم** . ذكره فى أعمال القلوب والجوارح ص ١٥٧

٣ – **التفكر والاعتبار** . ذكره ابن النديم فى الفهرست ص ٢٦١

٤ – **كتاب الدماء** . ذكره ابن حجر فى التهذيب ٢ ـ ١٣٥ .

٥ ــ **كتاب الغيبة** . فى فهرست ابن خير ص ٢٧٢ .

٦ ــ **فهم السنن** . ذكره الزركشى فى البرهان ١ ـ ٢٣٧ .

ثالثاً ــ المطبوعات .

١ ــ **بدء من أناب إلى الله** . نشره المستشرق ريتر سنة ١٩٣٥ م .

٢ ــ **التوهم** . نشره المستشرق آربرى بالقاهرة فى لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ .

٣ ــ **الرعاية لحقوق الله** . نشرته المستشرقة مرجريت سميث فى لندن سنة ١٩٤٠ . وأعيد طبعه بالقاهرة عام ١٩٦٦ ثم طبع ثالثاً بتحقيق عبد القادر أحمد عطا بالقاهرة عام ١٩٧٠ .

٤ ــ **الخلوة والتنقل فى العبادة ودرجات العابدين** . نشره الأب أغناطيوس عبده خليفة بمجلة المشرق عام ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ .

٥ ــ **رسالة المسترشدين** . حققه عبد الفتاح أبو غدة ، ونشرته مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب سنة ١٩٦٤ .

٦ ــ **الوصايا** .نشربالقاهرة عام١٩٦٥بتحقيق عبدالقادرأحمد عطا .

٧ ــ **المسائل فى أعمال القلوب والجوارح** . وهو مكون من : المسائل فىأعمال القلوب والجوارح ،والمسائل فى الزهد وغيره ،وكتاب المكاسب ،وكتاب العقل . حققه عبدالقادر أحمد عطا ونشره عام١٩٦٩.

٨ ــ **فهم القرآن** . حققه حسن القوتلى ونشره عام ١٩٦٨ م .

٩ ــ **كتاب العــلم** . حققه محمد العابد مزالى ونشر فى تونس عام١٩٧٥ م .

• • •



عونك اللهم

* * *

بداية العودة إلى الله

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى :

قلت : ما بدء من أناب إلى الله عز وجل ؟

قال : ابتداء من أقبل على ربه ، وعمل اطلب مرضاته : معرفة الله عز وجل ، وما أوعد ، مما وعد وتوعد ، ومعرفته بنفسه ، كيف سوء رغبتها ، وضعفها فى طلب نجاتها فى آخرتها ، فأدبها بأدب الله ، فاستقامت إلى محبة الله عز وجل .

معرفة الله :

قلت : وكيف كان بدء ذلك كله ، حتى أدبها بأدب مولاه ؟

قال : إن أول ذلك : أن الله سبحانه وتعالى أخطر بقلب عبده العارف ذكره ، وذكر آخرته ، وحركه للفكر والتذكر لعظيم قدر

مولاه ، وقدر رضاه وسخطه ، وما وعد وتوعد ، واستنار بذلك قلبه(١) .

خلائق النفس الأمارة بالسوء :

ثم نبهه لمعرفته بنفسه . وأول ذلك : أن نبهه لتذكر ما سلف من جناية نفسه عليه ، من كثرة الذنوب التى كتبت عليه فى صحيفته ، والتى لا يمحى ما فيها عنه حتى يوقفه عليه ربه ، ويسائله عن جميع ما جنت عليه نفسه ، مما كتبه وأثبته عليه ، فيقر بأعظم الحياء ، وأشد الخطر ، وأعظم الخوف والوجل .

ومن ذلك ، فإنه لا يأمن أن يبدو له عند قراءة ما فى صحيفته من الله الغضب ، فيجر ويسحب من بين يدى الله إلى عذاب الأبد .

ثم ذكره : أن نفسه كانت فى جميع ما جنت عليه من سالف عمره تأتيه بسرور ونشاط ، لم تزل مختلفة(٢) راغبة ، متيقظة فطنة ، متلحظة إلى ما يهلكها فى آخرتها ، مسرورة متنعمة بما يسخط مولاها ، كأن الله لا يميتها ولا يفنيها ، وعن سوء حالها لا يسألها ، وكأنه لم يزجرها ، ولم يتوعدها .

---

(١) إنما يستنير القلب بهذا التذكر إذا استمر عليه الإنسان وأدمنه ، حتى صار شغله الشاغل ، وبذلك تزول الحجب عن القلب ، ويعود إلى أصله الذى فطره الله عليه . انظر (القصد إلى الله ورقة ١٢ أ ، ب وآداب النفوس باب معرفة النفس ورقة ١٠ أ ، ب) . وفيها يذكر المحاسبى أن إدمان التذكر للموت والآخرة ينير القلب ويخليه تماماً من الوسوسة .

(٢) مختلفة : مترددة بين الشهوات .

بل كأنه ازدجرها وتوعدها ، ولا يقدر على عذابها بما توعدها به ؛ أو كأنها ممتنعة منه ، ولها ناصر ينصرها .

وكانت — مع سرورها ونشاطها فى جميع ما يكره ربها — معرضة عن (سبيل) نجاتها فى آخرتها ، مستثقلة لأقل القليل مما يرضى عنها ربها ، نافرة ناشزة كارهة(١) مبغضة للتعرض لأسباب عزها عند مولاها .

فإن عملت بالقليل من طاعة مولاها فمجبورة مكرهة ، بعد جذب منه لها ومجاهدة .

فإن طال المكث فى طاعة مما يقربها إلى ربها ، نازعته إلى تركها(٢). وثقلت عليه ما هو فيه (من عمل الآخرة) . وذكرته طيب راحة بدنه فى ترك تعب الطاعة . وخوفته فوت بعض حوائجه .

وإن أراد بذل القليل من ملكه لآخرته ، ألزمته الاغتمام بنقصان ذلك من ماله ، وخوفته الفقر إن دام على خراج مثل ذلك .

فإن أبى إلا أن يقدمه لآخرته دعته إلى النقصان منه(٣) .

فإن أبى إلا إخراجه بغير نقصان ، اغتمت لذلك ، ولم تزل تفزعه بعد إخراجه بذكر نقصان ماله ، لئلا يعود إلى إخراج مثله ، وتستعظم ذلك إذا أبى إلا إخراجه .

* * *

---

(١) ناشزة : نافرة عاصية .

(٢) فى الأصل : إلى تركه .

(٣) وبالتالى أنسته وعد الله تعالى بمضاعفة الصدقة فى الدنيا والآخرة .

العزم على تأديب النفس

فلما تبين له ذلك ، وعرف أن فى طاعتها عطبه فى يوم معاده ، وأن فى عصيانها نجاته فى آخرته(١) ، وأنها قد اعتادت سلوك (طريق) هلكته ، وألفت طول النفور والاشمئزاز مما يرضى عنده سيده ، وأنه إن هجم عليه(٢) الموت – ولا أمان له من سرعة هجومه – لقى الله تعالى على ما يسخطه ، وإن بغته الموت على حالته (هذه) كان فيها عطبه وهلاكه ، لا أن يعفو عنه ربه ، وأنه لا محيص (٣) له عن الموت ، ولا معدل(٤) له عن لقاء ربه ، وأنه لا رجعة له إلى الدنيا بعد ندمه ، وبعد لقاء خالقه ، وأن تغرير (النفس إياه) بضعف بدنه خطأ عظيم . وحمق بين ، وهلاك وعطب .

الوعظ والتذكير :

فألزم قلبه العزم على تأديبها ، والمواظبة على توقيفها ، والإلحاح على معاتبتها ، والدوام على موعظتها ، وتذكيرها ربها ، وترداد ذكر عظيم خطرها ، وأنها لابد لها من المصير إلى مولاها .

فلم تمكنه من معاتبتها ، وأعرضت عما يقرعها به ويذكرها .

---

(١) فى الأصل : فى آخرتها .
(٢) فى الأصل : هجم عنده .
(٣) لا محيص : لا مخرج .
(٤) لا معدل : لا مفر .

عزل النفس عن مواطن المعصية :

فكان أول ما بدأها به من الأدب لتفهم وتعقل ما ألقى إليها : أن ألزمها الصمت ، وحال بينها وبين من يشغلها بحديثه .

فلما لم تجد من تحادثه صمتت ، فلما طال (بها) الصمت سكتت(١).

فلما طال السكوت تبين لها كثير مما كانت تخوض فيه من الخطأ والزلل ، وانكسرت لما علمت أنها كانت خائضة فى الباطل ، متعرضة لسخط مولاها .

إدمان معاتبتها وتخويفها :

ثم ابتدأ فى معاتبتها . وتقريرها بالسوء الذى صنعت ، وبما هى إليه صائرة عن قليل .

فلم يزل يلح عليها ، حتى لانت ، واعترفت بذنوبها ، وأقرت بسوء صنعها ، ودوام غفلتها عن نجاتها .

فلما اعترفت بذلك ، ذكرها عظيم جرائمها ، وكثرة ذنوبها ، وأدام ذلك عليها ، وجعله عمله ، لا عمل له غيره(٢) .

---

(١) الفرق بين السكوت والصمت : أن الصمت سكوت اللسان ، وشغل النفس بالكلام . والسكوت : سكوت اللسان والنفس جميعاً .

(٢) مذهب المحاسبى : أن العكوف على تطهير النفس من الذنوب أفضل من عمل النوافل وهى مقيمة على عمل الشر ، وأن عمل الخير إذا خالطه الشر انقلب إلى شر وإنما ترفض النفس ذلك لثقل التطهير عليها .

انظر (آداب النفوس : باب الإرادة) .

فأوجع ذلك ضميرها ، فسالت دمعتها ، واستغفرت الله من سوء ما تقدم من صنيعها .

فحمل عليها ، وذكرها : أن المقام على ما عرفت ، وبه أقرت ، يعرضها(١) لأن يحل بها سخط مولاها .

ثم أخبرها : أنه لا أمان عندها أن يكون (ربها) قد غضب عليها لما أسلفت من معاصيها ، فكيف نقيم عليها بعد ذلك ؟ فأذعنت ، وسخت بالعزم على ترك المعاودة لذنوبها .

النفس تأبى مفارقة الشهوات :

فطهر قلبه من الإصرار (٢) ، وأشرق واستنار ، وعاود النظر ، وردد الفكر ، وألح بالفكر فى الأسباب التى كانت (النفس) تنال بها معاصيها ، من الأصحاب ، ومن الأهل ، ومن القرابة ، والخلطاء الذين كانوا يعاونونها على الشهوات . فدعاها إلى قطع جميع ذلك ومباينته(٣) ، وأخبرها أنها لاتصح توبتها ، ولا تتوب إلى خالقها ، إلا بهجران ذلك كله .

فنفرت ، ونشزت ، والتوت عليه ، وأبت .

---

(١) فى الأصل : يعرض .
(٢) الإصرار : عقد القلب على شهوة الذنب حتى ولو أقلع عنه الإنسان .
(٣) مباينته : مباعدته .

علاجها بالصوم والجوع والتذكير :

فكسرها بإدمان الصيام ، فانكسرت قوى طبعها (التى نالتها) من الاغتذاء بالطعام الذى كانت تألفه بالدسم ، فانكسرت عن نشاطها ، وهى مع ذلك مولية عنه(١) .

فلما رأى أن ذلك لم يبالغ فى تأديبها ، أمسها الجوع(٢) . فلما ألح عليها الجوع ذلت وخشعت ، فأمكنت من المعاتبة ، فحمل عليها فلم تقبل ، فذكرها عذاب الله ، وسوء المصير لمن أعرض عنه ، وتعرض لمقته .

فلانت له قليلا ، وسوفته ، ووعدته الترك لذلك عن قليل ، لتقضى بعض حوائجها ، وتدارى بعض من تحبه .

فحمل عليها بالوعيد كما يحمل البطل على قرنه (٣) ، وألح بالزجر والتذكير ، وعظم عندها الرب عز وجل ، وكرر عليها شدة نقمته ، وعظم عقوبته .

---

(١) يعنى بالحنين إلى الشهوات وعدم الإقبال على الطاعة .

(٢) يقصد المحاسبى بالجوع : التقلل من الطعام مع الصيام ، ولا يقصد الجوع من غير صوم ، فهو يرى أن كل عمل نافلة ليس له أصل فى الكتاب والسنة فهو بدعة ، كالصدقة أصلها الزكاة ، وصوم النافلة أصله فرض رمضان ولم يفرض الله الجوع على العباد .

انظر (آداب النفوس . باب العدل والفضل . وأعمال القلوب والجوارح : ٢٢٥ والعرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية للبكرى . . ورقة ٢٥) .

(٣) القرن : المبارز من الأعداء .

الحنين إلى بعض الشهوات دون بعض :

فأذعنت ، وطاوعت إلى إجابته إلى قطع تلك الأسباب ، وأبت أن تقطع باقى أسباب معاصيها .

فأمسك عنها وهو مغموم بعصيانها ، فنوى أنها متى أرادت أن تتعرض للأسباب التى أبت أن تقطعها : أن يحجزها عنها .

فلما قطعت بعض أسبابها واستبدلت بها أضدادها : من صاحب مرشد بدلا من الصاحب المغوى ، ومن تيقظ وتذكر بعد سهو وغفلة ، ومن تثبت وفكرة بعد طيش وعجلة ، والإدمان على مناجاة الرب جل ذكره ، بحلاوة تلاوة كتابه ، والنظر فى العلم من آثار نبيه صلى الله عليه وسلم ، وآداب الصالحين بعده — بعد كثرة الخوض والاستراحة إلى محادثة المفسدين .

واستبدل بعد كثرة الكلام صمتاً ، وبكثرة اللحظ إلى مالا يحبه مولاه غضاً ، وبادر إلى ترك الكثير من شهواته التى تباعده من ربه ، وتوقى كثيراً مما خبث من مكاسبه ، وما لا يطيب من غذائه .

فلما بلغ هذا ، اجتمعت أنوار ذلك فى قلبه(١) واستنارت مواريث الطاعة فى عقله ، وأيده الله تعالى بمعونته ، وهو الذى ابتدأ تنبيهه ، وحرك قلبه للنظر إلى نفسه ، وعرفه سوء رغبتها ، وقلة مبالاتها بآخرتها .

---

(١) الأنوار الناشئة عن ترك المعاصى هى المعبر عنها فى السنة النبوية بحلاوة الإيمان ، أو حلاوة العبادة .

فلما استقر فى قلبه ما وهبه الله سبحانه من نور طاعته ، والسرور بما هم به ، حيي قلبه ، وقوى عزمه ، وقهرت أنوار الطاعة هواه .

عقوبات مشروعة للنفس :

والنفس بعد ذلك يعرض لها بعض ما ألفته ، مما كانت تلتذ به . فمنه ما تتركه طوعاً ، ومنه ما تنازعه إلى معاودته .

فكل ما تركته طوعاً حمد الله الذى من بذلك عليه . وما نازعت إليه حمل عليها ، وقاتل هواه ، كمحاربته قرنه من أعدائه . فإذا تركته كرها حمد الله عليه ، وغمه قلة سخائها بتركه ، وكان حذراً منها أن تعاوده .

وما أبت إلا مواقعته زجرها . فإن انزجرت وإلا توعدها بعقوبة : أن يأخذ منها من الراحة ، وينزل بها من التعب ، والنقصان من المال ، والترك من اللذة من المباح أكثر من لذتها التى تريد أن تواقعها .

فإن انتهت بالتوعد (بذلك) حمد الله . وإن أبت إلا مواقعتها ورجت ألا يعاقبها ، وغلبته ، وغفل عنها ، وعجز عن مجاهدتها ، فرجعت إلى بعض ما يكره مولاها — بصرها سوء فعلها ، وخوفها أن يكون مولاها قد سخط عليها ، وأنزل بها العقوبة التى وعد أن يعاقبها بها .

فإن لم تقلع(١) أتعبها بكثرة الصلاة ، وأجاعها وأعطشها بصيام أو منعها كثيراً من شهوات الحلال التى لا تكاد أن تصبر عنها ، أو إخراج مال يتصدق به من ملكه .

---

(١) فى الأصل : فلم تقلع .

فنظرت إلى لذة المعصية التى نالتْها قد ذهبت ، وإلى العقوبة بها قد حلت ، وزادته العقوبة نوراً فى قلبه(١) ، ونشاطاً إلى التقرب إلى ربه .

فانكسرت ، وقوى عليها ، وزجرها فانزجرت ، ووعظهـا فاتعظت ، لأنها مؤمنة وإن عصت ربها .

وذكرها ما أنزل بها من العقوبة ، فعرفت أنه سيعاود ما عاقبها به . إن هى عادت ، فتركت ذلك ، وانصرفت عنه .

فما زال بها فى كل ما تأباه ، يؤدبها بمثل ذلك ، حتى قطعت كل سبب كان يباعدها من ربها عز وجل .

بين عقوبتها والتخفيف عنها :

فلما تركت عادتها ، واستقامت على طاعة ربها ، ترك شدة العقوبة لها ، كراهية الملال والنفور ، ثم لم يأمن منها أن تعود إلى بعض ما رفضت ، مما يكره مولاها عز وجل .

---

(١) يعنى بذلك نور الطاعة التى عاقب بها نفسه ، أو نور التقلل من المباح حيث تتسع مداركه المعنوية تبعاً لذلك .

فخفف عنها (تناول) بعض ما يقوى طبعها الذى يهيج منه هواها ، فنعها من بعض لذتها : من كثرة الطعام الذى ألفته ، من اللحم وغيره ، وشدة البطنة والامتلاء ، وتعاهدها بالصوم إن قوى عليه .

لأنه لما رأى شهوتها تنازعه من قبل طبعها ، أراد أن يكسر قوى شهواتها ، ليخلو قلبه ، فينظر إلى أعاجيب آخرته ، ووعد ربه ووعيده ، ويتيسر ويصفو ذكر ربه فى قلبه(١) .

النفس تسلم قيادها :

فرفع لها بالفكر والتوهم أعلام الآخرة ، فشاهد بها أهوالها وشدائدها .

وأراها بالتوهم النار والجنة من ورائها ، وأنها لا تصل إلى الجنة إلا بعد النجاة من عذابها .

فأبصرت مالا صبر لها عليه ، فسخت بترك ما يحب طبعها خوفاً أن يورثها الركون إلى ذلك مالا صبر لها عليه .

---

(١) كتب المحاسبى رسالة فى أمور الآخرة سماها « التوهم » وتحدث عن مادة الفكرة فى كثير من كتبه فى « آداب النفوس » قال : « والزم يا أخى قلبك الفكرة فى أمر المعاد ، فلا يفارق قلبك ، وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا ، وترك ما قد يذل أهلها فيه مهج نفوسهم ، وتدنيس أعراضهم ، وأخلاق مروءتهم ، ثم تركوا ذلك كله ، وقدموا على الله فرادى وآحادا . . . فإنك إن شغلت قلبك بذلك ، وكان فيك شىء من صحة تركيب العقل فإنه لا يعدمك الخوف اللازم المحيط بقبك . . . » انظر (آداب النفوس . باب معرفة النفس) .

فكان مثله فى ذلك كالذى وقع الداء فى رجله ، فاسودت وتآكلت فخشى إن لم يقطعها أن يدب (الداء) منها إلى جميع بدنه ، فبذل بعض ما له لمن يقطعها بشهوة وسرور لقطعها ، بعد ما كان يعز عليه أن تنقطع شظية من ظفر من أظفارها ، ولكن لما رأى السبب الذى لا يأمن أن يؤديه إلى عطب بدنه ، سخت بذلك نفسه ، خوفاً مما هو أعظم منه .

فكذلك هذا الذى نظر إلى آخرته ، ورأى أسباب هلاكه فيها فى قلبه وجوارحه ، ففارق ذلك بسخاء نفس ومحبة ، ولو كان لا يقدر عليه إلا ببذله ما يملك لفعل ، كما بذل ما يملك لمن قطع رجله وحسمها بالنار ، فاحتمل حرقة ذلك لخوف العاقبة ، وكذلك يحتمل المؤدب لنفسه الحرارات مخافة سوء عاقبة الأبد .

وشتان ما بين العاقبتين ، وشتان بين ما يرث القاطع لرجله من الراحة ، وبين ما يرثه الخائف من الله تعالى من الراحة فى جواره .

* * *

خـــداع النفس

الحنين إلى الشرف بين الناس :

فألزم قلبه الحذر ، فلما سكنت نفسه عن منازعتها ، وجانبت إلفها ، واستحلت طاعة ربها ، نازع طبعها إلى حب العز والشرف ، وحسن الثناء ، والتبجيل على ما ظهر من طاعتها ، وما تركت من معاصيها .

فزجرها ، وخوفها نظر الله إلى ضميرها بالمقت إن أضمرت التقرب بعبادته إلى غيره ، فانزجرت ، لأنه رياء ، والرياء شرك .

العجب :

ثم رجعت للتروح بالمن عليه : أنها أطاعت ربها وحده ، وأخلصت عبادتها .

فزجرها ، وقررها بما تقدم منه من مجاهدته إياها ، وأنها أبت طاعة ربها ، ونازعت إلى حب الشرف عند العباد بطاعتها . بعد تركها معاصي ربها ، وأن المنة للذى أيقظه لأدبها ، ومن عليه بأن صرفها عن محبوباتها ، فاعترفت أن ذلك كان من مولاها ، وأنها كانت له كارهة.

توهم فضلها على غيرها من الناس :

ثم رجعت عليه قائلة : إن الله تبارك وتعالى لما من بذلك عليها ،

وقلبها عن محبتها ، قد فضلها بذلك على غيرها ، ممن هو مستور الحال بين الناس .

فزجرها ، وذكرها سوء ما سلف من آثارها ، فيما بينها وبين خالقها ، وما يخاف عليها من خواتم السوء فى آخر عمرها ، وأن ما يعرف من ذنوبها أكثر من ذنوب من تروحت إلى التعظم عليه ، وأنها أفضل عند الله تعالى منه .

فأذعنت . وتواضعت . لأن صاحب العيب إذا عرف بعيبه أذعن وخضع ، فخشعت وانكسرت(١) .

اعتقاداتها مصطفاة وصادقة :

ثم رجعت عليه متروحة إلى أن الله سبحانه لم يمن عليها بطاعته وبجنبها معاصيه ، ويذللها بالتواضع ، إلا وقد اصطفاها ، وجعلها من الصادقين له ، تروحاً منها إلى ذلك ، لتنال السرور بذلك فى طبعها .

---

(١) أجمل المحاسبى المخاوف التى يجب أن يعيش فيها العبد السالك إلى الله ، وجعلها تسعة . أولاها : أن يخاف ويدعو ألا يكله الله إلى حسناته التى يتعزز بها فى عباد الله ظلماً وعدواناً . والثانية : أن يخاف من كفران النعم التى بطر بها ولم يشكر عليها . والثالثة : خوف الاستدراج بالنعم . والرابعة : خوف أن ترد عليه أعماله . والخامسة : خوف الذنوب التى عملها . والسادسة : خوف تبعات الناس عنده . والسابعة : خوف ما يحدث له فى بقية عمره . والثامنة : خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا . والتاسعة : الخوف من سابق علم الله فيه وفى أى الدارين أثبت اسمه .

ويرى أن فى استحضار هذه المخاوف نجاة النفس من العلو والالتواء (آداب النفوس : باب معرفة النفس) .

فزجرها ، وذكرها ما كان منها من ذنوبها ، وخوفها أن يكون قد سخط عليه من أجلها ، وأنها لم تقم له بحق كما يحق لها ، وأنها لا تدرى على ماذا تموت .

فأذعنت ، وخافت ، ووجلت ، وصغرت . فلما أراها أن هذه الأربع تعارضه فى طاعته لربه : الرياء ، والعجب ، والكبر ، والعزة ، ألزم قلبه حذرها ، وتعاهدها باعتراضها ألا تكون مالت إلى بعضها ، وهو غافل ناس .

• • •

دلائل الصدق فى التوبة

الجد فى الطاعة :

فلما تبدلت أحواله ، واستحلت (النفس) ما كانت تشمئز منه ، وأنست بما كانت منه نافرة ، وزهدت فيما كانت فيه راغبة ، وأنار منه اليقين ، فشاهد ما غاب من الآخرة بعقله ، فقوى تعظيم الله فى قلبه ، واشتد خوفه منه ، ورجاؤه إياه ، فهاج منه الحياء من الله وأزعجه عن كل قاطع يقطعه من قرب ربه ، وسبب يشغله عنه وبعثه الرجاء ، ونشطه الدؤوب ، والاجتهاد ، وأهاجه الحب على مناجاة سيده ، والأنس به ، والوحشة مما سواه .

فأطال مناجاته ، وأقبل الله تعالى بعوائده ، واتصال المزيد فى قلبه ، فأنار فيه ذكره ، وعظم فيه حبه ، مع شدة الشفق أن يحال بينه وبينه ، فاشتد شوقه إلى مولاه ، وطال حزنه ، ووله عن الدنيا عقله إجلالا وإعظاماً لهيبته ، مع الشفق والوجل أن يقطع عن قرير عينه .

الحــزن والخوف :

وذعر وفزع ، فمرة تنفضه الرعدة برجفان قلبه ، ومرة يهيج منه الانثناء بسيلان دموعه بالحرقات ، وطوراً يثور بالزفرات ، وتارة يزول عقله(١) ، يحسب الجاهل بأمره أن طيفاً من الجن قد اعترض

---

(١) ليس المراد من زوال العقل هنا : الجنون ، وإنما المراد الذهول ، وشدة الخشوع ، وهو معنى قوله تعالى : (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) .

له ، وقد خامرته فى أكثر أحواله البهتة ، وغلبت عليه الكآبة ، فهو فى نهاره نافر مستتر ، مستوحش من الخلق(١) ، وليله ليل مضطرب .

فلو أبصرته أيها المغرور بدنياه ، المخدوع عن طريقه ، فى سواد ليله وقد هدأ العباد ولم يهدأ فؤاده ، وسكن الخلق ولم يسكن خوفه ، واستراحت الخليقة ولم يفتر حنين قلبه ، وقام بين يدى ربه بقلبه المحزون ، وفؤاده المغموم ، منكساً رأسه ، مقشعراً جلده ، وقد ثنى عنقه ، وحنى صلبه ، والحياء قد غلب على قلبه ، فافتتح كتاب ربه ، مع تعظيمه لما يتلو ، إجلالا للمتكلم به(٢) .

فما لبث أن هاجت عليه أحزانه ، واشتعلت حرقات فؤاده ، وأسبل دمعه ، وحن فى بكائه خشية أن تسمعه أذن غير سمع ربه(٣) فأنفاسه متوهجة ، وزفراته بحرق فؤاده متصلة .

فلما طال منه القيام بين يدى ربه ، اشتاق إلى التذلل له بتعفير وجهه ، خضوعاً له ، فلو أبصرته منحطاً من انتصابه بحرقة قلبه ، وأزيز صدره ، وتراجع أنفاسه ، فخر ساجداً على وجهه ، ذاكراً

---

(١) ليست الوحشة من الخلق عند المحاسبى هى العزلة عنهم ، وخلاصة مذهبه فى ذلك قوله لتلميذه الجنيد البغدادى : « لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما أنست لقربهم ، ولو أن نصفه الآخر بعد عنى ما استوحشت لبعدهم » (حلية الأولياء ٩ - ١٨٠) .

(٢) يريد أن التائب الصادق يتوهم أنه يسمع القرآن من ربه فيجله ويعظمه لذلك .

(٣) البكاء عند مناجاة الله تعالى مشروع فى القرآن حين يقول تعالى فى علامات الصادقين : (ويخرون للأذقان يبكون) وقوله : (خروا سجداً وبكياً) .

لنظر مولاه إليه ، سائلة دموعه على خده ، حتى أثرت فى وجهه ، يضرع ويتضرع ، ويهتف ويبكى ، ويزفر وقد ملأ العظيم قلبه ، وأذهبت رهبة الله عقله(١) .

سقوط الكلفة فى الطاعة :

وقد ارتفعت عنه السآمة ، وزايلته الملالة ، لما فى صدره من الجلال والهيبة لربه .

وكيف يسأم وهو مستقل لعمله ، مقصر عند نفسه فى حزنه ، وفى حرق فؤاده ، لعظيم ما ألزم قلبه من تعظيم الله وخشيته ، والشوق والحنين إليه ، وهو مجتهد مذعور ، ومع فرقه وذعره مشتاق ، ذو حنين ، واله معلق قلبه بمولاه ، لا ينفد من قلبه ذكره ، وشدة هيبته .

وكيف تنفد هيبة من قد أقبل عليه بالتوفيق ، وعطف عليه بالرحمة والتنبيه ، وقد قرب من قلبه ذكر سرعة لقاء ربه ، فهو فى كل وقت يتوقع نزول الموت به ، فلم يتهن فى نهاره بقرار ، ولا اطمأن فؤاده من خشية المباغتة بالموت فى كل حال وأوان .

قد أيقن أنه قائم بين يدى مولاه بلا حجاب يحجبه عنه ، ولا ستر يوارى بصره ، فكأنه يعاينه ، قد ثنى عنقه ، وحنى صلبه ، مع

---

(١) يرى المحاسبى : أن الشيطان لا يسكن إلا القلب الخرب . ويرى أن خراب القلب إنما يكون إذا كان فارغاً من الحزن والخوف الدائم ، فحينئذ ينفث فيه بالوسوسة وتمنى الدنيا ، والطمع فيها ومخافة فقرها . انظر : (آداب النفوس : باب معرفة النفس . والقصد إلى الله ورقة ٣٨ أ ، وأعمال القلوب والجوارح : ١١٠) .

وجيف(١) كأنه من شدة شغل قلبه ليس فى الدنيا ولا من أهلها .

قد ضمر نفسه للسباق غداً ، وتخفف من الدنيا لسرعة الممر على جسر جهنم ، ذابل ناحل ، دائب راج ، نعيمه فى الدوام على أحواله ، طالب من الله تعالى أن يزيده حزناً ، ووجيفاً وحنيناً وشوقاً ، ودؤوباً واجتهاداً .

مبادر مشمر متنعم بالطمع وحسن الظن والأمل ، ومحزون بخوف الفوت والحرمان ، وهو مع ذلك راض بقضائه ، مسلم لأمره ، واثق لما ضمن له ووعده ، لا يرى عزاً إلا التعزز به ، ولا شرفاً إلا فى الإقبال عليه .

العلم بطريق التوبة :

بصير بداء نفسه ، ونزعات عدوه ، لا يركن إلى خطره ، ولا تتموه عليه زينة فتنة ، قد ارتقى إلى القرب ، فإذا بصيرة من دلائل الكتاب والسنة ، فإن ساءلته وجدته بصيراً بالطريق إلى الله سبحانه ، وإن أجاب أجابك بالوصف عن طريق قد سلكه ، وعن آفات قد رفضها ، وعن مكابدة قد جاهدها ، وعن درجات فى القرب من الله سبحانه وتعالى قد ارتقى إليها(٢) .

---

(١) الوجيف : الخوف .

(٢) لقد نبه المحاسبى إلى عقبة اتباع السنة فيقول : « والسنة ليست بكثرة الصلاة تدرك ولا بكثرة الصيام والصدقة ، ولا بالعقل والفهم ، وغرائب الحكمة ، ولا بالبلاغ والموعظة ، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله والأئمة الراشدين =

فدل المريدين على ابتدائه ، وما عرض له من القواطع ، وبأى شيء قطعها ، وأنه لم يصل إلى السرور والراحة إلا بعد المكابدة والمجاهدة ، لكى يتحملوا مثل ما لقى ، حتى يفضوا إلى الغنى والراحة والسرور .

وأخبر عن طريق المؤدب لنفسه . ولم يذكر ذلك عن نفسه لئلا يظهر ما كان من طاعته لربه .

فأخبر : أن المريد لله عز وجل كان أول ابتدائه ما من الله عليه من تنبيه لمطالبة نفسه بما طالبها به حتى أجابته ، ثم كان الغالب عليه بعدما انقادت له نفسه : شدة الوجل والخوف .

قد أشرف على الإياس ، فلا يمنعه من اعتقاده إلا أنه عليه محرم لمعرفته بجود ربه وكرمه ، ولكن الغالب على قلبه ، خوف ألا يقبل مثله ، لعظيم جنايته وجرمه ، من غير إياس أن يتفضل عليه بجوده وكرمه .

وإذا تلا آية رحمة وثواب قال : هذا للطاهرين غيرى .

علم الرجاء والشكر والخوف :

فلما نظر الله سبحانه إليه كذلك رحم ضعفه وقلقه ، ووجله وقلة هدوئه ، فأهاج الرجاء من قلبه ، وذكره أياديه وتفضله ، والسوء الذى

= وليس شيء أشد تهمة ولا أكثر خروجاً عن السنة من العقل والفهم دون اتباع واستسلام (آداب النفوس . باب العدل والفضل) .

نقله منه ، وما بدله بعد إساءته ، وما عوضه من الإحسان والإقبال .

فأحسن ظنه ، ورجا أن يكون لم يمن عليه بذلك إلا لسابقة سبقت له منه بالرحمة قبل أن يخلقه ، فغلب الأمل على قلبه أن الله تعالى سيعفو عنه إذ من عليه بما من ، فأنس بالرجاء ، وعظم الشكر فى قلبه ، وخاف أن يعذبه على تضييع الشكر له .

فدأب فى الشكر رجاء المزيد ، فزاده الله به أنسا ، وسرورا بحسن الظن به ، فبعث أصول الخوف والرجاء الى قلبه ، فكانا قائديه الى الله تعالى ، وصارا علمين فى قلبه .

إن عارضته غرة(١) أهاج الإشفاق على الخوف ، فخاف عواقب الآخرة ، وإن عارضته فترة أهاج الرجاء ، فنفى فترته ، وإن عارضه إياس أهاج حسن الظن بالله والرجاء فقمعه .

* * *

(١) لبيان الفرق بين الرجاء الصادق والرجاء الكاذب الذى هو الغرة نسوق قول المحاسبى حيث يقول :

« الراجون ثلاثة : رجل عمل حسنة وهو صادق مخلص يريد بها الله فهو يرجو تقبلها وثوابها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب إلى الله منها ، فهو يرجو قبول توبته وثوابها . فهذان رجاؤهما صادق .

وأما الثالث : فرجل يتمادى فى الذنوب وفيما لا يحب أن يلقى الله به ، ويرجو المغفرة من غير توبة . وهذا يقال له مغتر صاحب غرة ، متعلق بالرجاء الكاذب » (آداب النفوس . العدل والفضل . وأعمال القلوب والجوارح ١١٣) .

عـــزة مقام التائبين

فهذا كان طريقه ، وهو الذى نصبه الله تعالى للمريد ليؤدب نفسه فلا يزهد الجاهل فى مقام المريد المقبل على ربه عز وجل .

تراه من الدنيا متقللا ، ذليلا خاشعاً ، حزيناً باكياً ، منقبضاً عن أبناء الدنيا(١) مظلوماً لا ينتصر(٢) ، ومساوباً لا يكافأ ، شعثاً أغبر ، متقشفاً ، منفرداً غريباً .

لو اطلع الجاهل على قلبه ، وما استودعه الله تعالى من إحسانه ، وما أعقبه مما ترك من زينة الحياة الدنيا ونعيمها ، لرغب فى مقامه ، وعلم أنه الغنى الجميل ، المتلذذ الفرح المسرور ، لأنه قد أدرك بغيته ، وظفر بطلبته من ربه ، لأنه فارق المنغص من الدنيا ، المكدر الذى لا ينال إلا بهموم الحرص ، ونصب الطلب . وشغل القلوب به أن تناله ، وخوفها أن يزول فتفتقر بفقده(٣) ، مع أسقام وأمراض ،

---

(١) المراد بأبناء الدنيا : عشاقها ، الحريصون عليها ، المشتغلون بها عن الله ، أما العاملون فى عمرانها على مقتضى أمر الله تعالى ، المراقبون لله فى كل أعمالهم فليسوا مرادين هنا ، ولم يؤمر المؤمنون بمجانبتهم . انظر : (المكاسب ١٧٦) .

(٢) وذلك عملا بقوله تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

(٣) ليست هذه دعوة للسلبية ، وإنما هى الإيجابية فى العمل لعمران الحياة كما أمر الله ، والسلبية بالنسبة للحرص الذى يشغل الإنسان عن دينه وربه .

وآفات ومصائب ، وفجائع ومكاره لا ينفك منها من ركن إلى ذلك مع حجب قلبه عن طيب ذكر ربه ، والأنس به ، والقرب منه ، وتركه طلب نجاته فى آخرته ، وتعرضه لعذاب الأبد عن قليل بعد موته لأن الراكن المؤثر لذلك على طاعة ربه يتوقع الموت كما يتوقعه المقبل على ربه ، فإما الرضى وحسن المآب ، وإما السخط وسوء المآب .

فلا يجد الراكن إلى الدنيا حلاوتهما ، والرافض للدنيا يتنعم بهما ، لأنه قد ترك الدنيا لمن لا يخيب من طلبه ، ولا يترك مكافأة من عمل له ، ولا العوض له فى الآخرة بما صبر عنه فى الدنيا .

قد عقل لمن عمل ، وأيقن بسرعة لقائه عاجلا ، فهو لأهل الدنيا راحم إذا اشتغلوا بما به يتعذبون ، وعن قليل إياه يسلبون ، ثم لا محيص لهم من الحساب عليه ، مع ما حرموا مما ادخره المتقون عند ربهم ، وقدموا لأنفسهم .

يا أخى .. كيف يكون هذا المريد المتقشف المتقلل مسكينا وهو للخلفاء والملوك مزاحم .. ينظر إليهم وما بنوبهم فى الدنيا من همومهم ونصبهم ، وما يعلم مما يلاقون من شدة الحساب بعد موتهم ؟

أم كيف يكون ذليلا من هو بالله عزيز ، وبذله وخشوعه يبتاع عز الأبد ، فى جوار الرب الأكرم ؟

بل هو فى الدنيا عزيز به ، فارق عز الدنيا ليعوضه مولاه الرفعة عنده فى جنته .

أم كيف يكون غريباً من كان له أنيساً ؟

أم كيف يغم التفرد وقطع محادثة العباد من كان قلبه من الحكمة مؤيداً، ولسانه بمناجاة الله دائباً ؟

أم كيف يكون ضعيفاً من رفض سعة الدنيا ، ولم يرتض بها عيشاً ، إذ أيقن أنه لها مفارق ، وأنه يطلب برفضها التبجح فى سعة جوار ربه مع خلود الأبد .

لو بذلت مثل الذى عملت فى الذى علمت (١) لم تؤد شكر نعمة فى الدنيا .

فالذى عملت للإحسان لا يقوم بالعلم فى الإحسان .

إحسان الله إليك فى إحسانك ، لا يقوم به إحسانك .

لا تكن حزيناً على ما فاتك من سهم غنيمتك أكثر من حزنك على ما فاتك من الغزو .

قد يعاقب العاصى بدون ما يستوجب ، مع العفو ، ومن لم يعاقب يوم أحد بالعزيمة ؟ ثم قال : (**ولقد عفا عنكم**) (٢) .

قال الحسن : قتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسرت رباعيته ، ودمى وجهه . وقتل كثير من أصحابه ، ثم قال تعالى :(**ولقد عفا عنكم**) يعنى . ولم يستأصلكم .

---

(١) يعنى : فى مقابل الذى علمت من إحسان الله إليك بالعلم .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

ولو سلم أحد لفضله وكرمه عند الله لسلم آدم عليه السلام ، فكفاه بالخروج من الجنة عقوبة ، ونوح عليه السلام بعده ، وداود ، وموسى ويونس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم فى سورة عبس ، وقال له أيضاً . **(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه)** .

وقد عفا الله عنهم عما يستحقون ، فما ظن محمد أنه يجزئه إقراره بذنبه وتوحيده وصلاحه وخشيته ، دون أن تاب ، وكذلك جميع من عوقب من النبيين .

فكن للعقوبات منتظراً ، إذا كنت من الذنوب غير متطهر ، ولا تستنكرها عند نزولها ، فإنك مستحق لأعظم منها ، فالعفو أمسك عنك عظيمها .

• • •

دلائل صدق الشاكرين

والشكر على نعمة التوبة واجب .

وعلامة الشاكرهم بالقيام بالشكر ، وسؤال الله الشكر .

فإذا كان كذلك رضى بالقليل من الدنيا ، وخاف ألا يقوم بشكر الكثير ، ومن يكن همه الشكر وسؤال الله إياه لم يقنع ، فهو أبداً لهفان ، وأبداً عطشان .

واعلم أن الشكر لا يكون على الحرام إلا حراماً ، لأنك اعتقدت أن الحرام حلال ، فعظمته إذ أنزلته نعمة ، فأنت لله عاص باستحلالك الحرام ، وتعظيمك ما صغر ، وطلبك الازدياد مما كره الله عز وجل .

فأما الشاكر فى الحلال فقد يترك أن يطلب كثيراً من الحلال خوف ألا يقوم بشكر الكثير ، فيصبر عن الكثير لعظيم الشكر ، وصبر على القليل ولم يجاوزه ، لهمه بالشكر ، حذراً ألا يقوم بشكر الكثير ، فكتبه الله تعالى من الصابرين الشاكرين ، لأن همه الشكر وترك الكثير وأسبابه ممكنة ، لإعظام الشكر(١) .

---

(١) من أجمع ما كتبه المحاسبى عن الشكر قوله :

« وأما الشكر فمعرفة البلوى . فإذا عرف أن كل نعمة فهى من الله تعالى ، وهى بلوى يختبر بها العبد ليشكر أو يكفر ، فهذا من الشكر . فإذا عرف العبد هذا أنه من الله ، وعدد من نعمه عليه ، ولم يدخل فيه أحداً لا نفسه ولا غيرها فقد شكره . =

فصبر عن الكثير من الدنيا ، وصبر على القليل منها ، فهو صابر شاكر ، والصبر لا يكون لعجز(١) ، ولا يكون صابراً إلا عن المقدرة ، والعاجز لا صابر ولا جزع ، والقادر يصبر عن السعة وهو عليها قادر ويصبر عن البلاء فى الجزع ، فيمسك جوارحه ، فهو صابر لأنه حبس نفسه على قدرة على الجزع .

• • •

= فالشكر متفاوت ، والناس فيه متفاوتون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد ، وليس له حد .

ومنه أيضاً وهو يشبه ما وصفنا إلا أنه أصل الشكر : أن يعرف العبد أن ما به من نعمة فمن الله معرفة قلب بعلم يقين لا تخالطه الشكوك ، فإذا عرف ذلك بقلبه ذكره بلسانه ، فحمد الله عليه ، ثم لم يستعن بشىء من نعم الله على شىء مما يكره الله .

وأعلى من ذلك : أن تعد كل بلاء ينزل بك نعمة ، لأن لله من البلايا ما قد أنزله بغيرك مما هو أشد وأعظم من ذلك الذى أنزله بك . (آداب النفوس . العدل والفضل) .

(١) يعنى أن العاجز عن الحصول على الكثير من الدنيا لا يعتبر صابراً عنه ، والصابر على القليل لعلة صحية مثلا لا يعتبر صابراً . ومن هنا كان الصبر قوام الشكر وحقيقة الصبر كما يقول المحاسبى : أن يكون عند رضا وسرور وعلم بعوائد الصبر . أما الصبر مع منازعة النفس صاحبها إلى الشىء فيسميه المحاسبى : تصبراً . أى : محاولة للصبر ، ومجاهدة فى سبيل الحصول عليه (القصد إلى الله ورقة ١٠٩ أ ، ب) .

الملحق الاول

في احكام التوبة

معنى التوبة وحدودها

اختلف العلماء فى تحديد معنى التوبة . فمنهم من قال : إنها الندم ، وقد جاء فى الحديث : « الندم توبة » . ومنهم من قال : إنها العزم على ألا يعود إلى معصية ، وآخرون قالوا : إنها الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من جمع المعانى الثلاثة ، وهو أكمل المعانى وأصحها . فهى : « الندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة ، والإقلاع عن الذنوب » .

وقال عبد الله بن المبارك : « التوبة : الندم على ما مضى من الذنوب والعزم على ألا يعود ، وأن يؤدى التائب كل فرض ضيعه ، ويؤدى إلى كل ذى حق حقه من المظالم ، ويذيب البدن الذى زينه بالسحت والحرام بالهموم والأحزان ، حتى يلصق الجلد بالعظم ، ثم ينشأ بينهما لحم طيب ، ويذيق البدن ألم الطاعة كما أذاقه لذة المعصية » .

فهذا التعريف جامع لكل خصال التوبة المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، والتى هى التوبة النصوح. ومنها يمكن تفسير قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » فهو الندم البالغ الحقيقى الذى ينشأ عنه هزال الجسد الذى نشأ فى ظل الحرام ، لا مجرد ترديد ألفاظ الندم باللسان ، وتصنعه أمام الناس ، ويمكن كذلك تفسير التوبة بهذا التعريف من قول الله تعالى : **(إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً**

فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات). أى : إنه لا بد من تعويض ما صرفه العبد من عمره فى اللهو والمعصية بالعمل الصالح ، فالتائب المقلع عن الذنب دون أن يعوض ما فاته بأعمال صالحة لا يرجى فلاحه ، فالآية تشترط الإيمان فى التوبة ، والإيمان قول واعتقاد وعمل ، والعمل فى الإيمان عمل بالفرائض وبجميع شعب الإيمان البضع والسبعين قدر المستطاع ، وهذه الشعب كلها أعمال صالحة فيما بين العبد وربه ، وفيما بينه وبين الناس .

ومن شروط التوبة الصحيحة : أن يهجر التائب الذنوب لأنها معاص يغضب منها الله ورسوله ، لا لسبب آخر ، فإن أقلع عن الذنب لأنه ضار بصحته أو ماله فليس ذلك بتوبة ، وإنما هو عمل بهوى النفس لا لوجه الله . قال الله تعالى : **(توبوا إلى الله توبة نصوحا)** . ولم يقل : توبوا حفظاً لصحتكم ولا لأموالكم ، فمراعاة الصحة والمال ليس هدفاً رئيسياً للتوبة ، وإنما هو أمر ثانوى لا يجوز أن تتجه إليه نية التوبة .

وعلى كل عضو من أعضاء الإنسان توبة . فتوبة العين كفها عن النظر إلى المحارم ، وتوبة السمع كفه عن سماع المحرم ، وتوبة اليد كفها عن تناول المحرم ، وتوبة القدمين كفهما عن السعى إلى المحرم ، وتوبة الفرج كفه عن الزنا ، وهكذا جميع الجوارح ، حتى العقل له توبة ، وهى كفه عن التفكير فى المحرم ، واللسان يتوب فلا يدعو إلى مكروه عند الله ورسوله .

التوبة والعمل الصالح

كثير من الناس يظنون أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الإنسان عند الله ، ويقولون : إن هذا فى جانب السيئات ، وهذا فى جانب الحسنات ، ولعل ميزان الحسنات يرجح على ميزان السيئات فيفلح العبد غدا عند الله .

وقد عنى الحارث بن أسد المحاسبي بهذه القضية أشد العناية ، وفصل القول فيها فى كتابه المخطوط « آداب النفوس » وخلاصة ما قاله : إن تطهير النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل وأعمال البر الأخرى ، وهو يقيم على المعاصى للأسباب الآتية :

١ ـ أن قبول الله لأعمال البر من عبد مقيم على المعصية غير محقق لأن النفس المشغولة بلذة المعاصى قلما تخلص عمل الخير ، فضلا عن أن محل النية وهو القلب ملوث بالشهوات ، فيستحيل أن يخلص العمل الصالح إذا كثر عليه الران من تتابع الذنوب وتشبعه بها .

٢ ـ أن الإنسان مطالب بترك الشر كله ، وليس مطالباً بفعل الخير كله ، وعلى هذا أصبح ترك الشر فى المنزلة الأولى الواجبة على الإنسان .

٣ ـ أن ترك الشر يوقع الإنسان فى الخير من تلقاء نفسه . فالتائب عن الزنا يصبح عفيفاً ، والتائب عن الكبر يصبح متواضعاً ، والتائب عن البخل يصبح كريماً ، والتائب عن الكذب يصبح صادقاً ،

وهكذا جميع السيئات ، يتوب منها فاعلها ، فيقع فى أضدادها ، وهى فضائل صالحة .

٤ ـ لا خير فى عمل من أعمال البر خالطه الشر فى قلب واحد . فعمل البر إذا خالطه الشر أصبح شراً ، والشر شر كله .

وعلى هذا فهو يرى أن إقامة العبد على خصلة واحدة من الشر يفرغ نفسه للتوبة منها ، ويتقن هذه التوبة ، ويجاهد لاقتلاع جذورها من القلب ، ويشغل نفسه بها ليل نهار ، مع القيام بالفرائض وحدها ، خير ألف مرة من عمل البر وهو مقيم على تلك الخصلة من الشر فإذا تاب من هذه الخصلة اتجه إلى غيرها ، وهكذا حتى يقتلع جميع الجذور الشريرة من قلبه ، فيصبح قلبه خالصاً صافياً ، تصدر عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله . وهذا هو معنى الآية الكريمة **(إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)**

فقدم الله تعالى التوبة ، وهى اقتلاع جذور الشر والمعصية من القلب أولا . ثم أتبعها بالإيمان ، وكأن العاصى يحتاج إلى تحقيق أمنه إلى جوار الله بدلا من أمنه فى جوار الشهوات التى أفسدت عقيدته فى الله ، وأتبع ذلك بالعمل الصالح ، وهو آخر ما يجب على التائب ، فالعمل الصالح حينئذ يصدر عن قلب تائب مؤمن ، وحينئذ تحل الصفات المضادة لخصال الشر محل خصال الشر كما قلنا ، وتلك هى الحسنات مكان السيئات كما جاء فى الآية الكريمة .

وعلى هذا يجوز أن يتوب العبد عن بعض السيئات دون بعض ،

فتوبته عما تاب منه مقبولة ؛ وبقى عليه ما يقترف من المعاصى ، بشرط أن تكون توبته لله ، لا حفظاً للصحة والمال ، أو حفظاً لمكانته ، أو خوفاً من القانون ، أو لعدم وجود ما يشترى به المعاصى .

الإصرار استهزاء بالله ورسوله

معنى الإصرار : أن تبقى فى القلب حلاوة المعصية ، وتمنى مقارفتها ما وجد السبيل إليها ، فالشعور بالرغبة النفسية فى المعصية ، وعقد القلب على حبها إصرار عليها . وعلى هذا فالتوبة منها مع بقاء هذه اللذة فى القلب ، وتمنى ارتكابها إن وجد إليها السبيل ، وحديث النفس الدائم بلذتها ، هذه التوبة تسمى توبة الكذابين ، وهى التى وصف أبو هريرة رضى الله عنه صاحبها بأنه كالمستهزئ بربه . فهى توبة غير مقبولة ، فضلا عن إثم المخادعة لله الذى يرتكبه هذا التائب .

ولكن ، ماذا يصنع الذى انعقد قلبه على حب المعاصى ، فانغمس فيها ؟

لا طريق له إلا طريق الجهاد الشاق للنفس ، ذلك الجهاد الذى أوضحه المحاسبى فى كتابه هذا الذى نقدمه لك . فمن اتخذ منهج المحاسبى الذى رسمه هذا الكتاب طريقاً له ، فإنه يصل بإذن الله إلى تحقيق التوبة قولا وعملا واعتقاداً ، وينجو من الإصرار على الذنوب .

وعليه قبل ذلك أن يهجر أماكن السوء ، وأصدقاء المعصية ، وأن

يحافظ على ورد من القرآن كل يوم ، وأن يقرأ تواريخ الصحابة والتابعين والصالحين ، وأن يدمن الدعاء فى أوقات الإجابة ، ولا سيما فى جوف الليل : أن يرزقه الله التوبة النصوح . فإن الله تعالى مجيب من دعاه ، ومغيث من اضطر إليه .

وما هو الحد الشرعى للإصرار ؟

قال الجمهور : الإصرار هو غلبة المعاصى الصغائر على الطاعات . وقد أشار إليه الفقهاء فى كلامهم عن العدالة وما يسقطها فقالوا : إن من زادت منه الصغائر على الطاعات اعتبر مصراً ، وسقطت عدالته .

وقيل : يتحقق الإصرار بالمواظبة على صغيرة واحدة ، وتكرارها أو على بعض الصغائر وتكرارها كذلك ، وقالوا : إن تكرار مجموعة من الصغائر يشعر بما يشعر به أدنى الكبائر من قلة المبالاة بالدين . ولهذا قيل : الإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر .

التوبة من الصغيرة ومن الكبيرة

قبل أن نحدد طريقة التوبة من الصغائر وطريقة التوبة من الكبائر نتكلم عن تحديد معنى الصغيرة ومعنى الكبيرة أولا .

اختلف العلماء فى تحديد معنى الكبيرة ، فإذا علمنا حد الكبيرة ومعناها من خلال هذا الخلاف ، فكل ما عداها صغائر .

١ ـ قال الإسفراييني وتبعه السبكي : كل الذنوب كبائر ولاتوجد صغائر مطلقاً ، وذلك نظراً إلى عظمة الله وهيبته ، لا نظراً إلى نفس الفعل ، وقالوا : إن الصغيرة تتعاظم حتى تصبح كبيرة . واعترضوا على هذا التعريف بقوله تعالى : **(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)** . فالآية تذكر نوعين من الذنوب أحدهما الكبائر ، والآخر صغائر قطعاً . ورد الإسفراييني والسبكي ومن تبعهما على هذا الاعتراض بأن المراد بالكبائر فى الآية : الكفر ، هكذا قال التفتازانى فى شرح العقائد النسفية . وقال : إن جمع الكبائر فى الآية يدل على أنواع الكفر لا على اختلاف الكبائر فى النوع ، فالجمع يعنى تكرار الكفر فى كل ملة ، أو تكراره بالنسبة للأفراد من المخاطبين ، وذلك بناء على قاعدة : أن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى انقسام الآحاد إلى آحاد ، كما فى قولهم : لبس القوم ثيابهم ، وركبوا دوابهم . فيكون معنى الآية : إن تجتنبوا أنواع الكفر أو أفراده نكفر عنكم جميع ذنوبكم .

٢ ـ وقيل : الكبيرة ما شرع لها حد من الحدود ، كالزنا والسرقة . وهو تعريف ناقص ، لأن القتل ليس فيه حد ، بل فيه قصاص ، لأن القصاص حق العبد . والحد عقوبة مقررة لله لا للعبد ، ولأن من الكبائر مالا حد فيه مثل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف . وعلى هذا لم يأخذ العلماء بهذا التعريف .

٣ ـ وقال الجمهور : الكبيرة : كل ما توعد الله عليه فى الكتاب أو السنة . وقد اعترض على هذا التعريف بأن النياحة عند المصيبة من الصغائر ، مع أنه ورد فيها وعيد فى السنة . وأجيب عن

هذا الاعتراض بأن الوعيد قد يكون للتهديد والإزعاج ، لئلا يتلفظ الناتج بألفاظ الكفر ، أما المراد فى وعيد الكبيرة فهو التهديد الحقيقى .

٤ ــ وقال إمام الحرمين : إن الكبيرة كل جريمة تؤذن بعدم اكتراث مرتكبها بالدين . والصغيرة على هذا كل جريمة لا تؤذن بقلة اكتراث صاحبها بالدين . ويعترض على هذا بأن وطء الحائض والأمة قبل استبرائها ، وقراءة القرآن للجنب أو للحائض ، وتأخير الزكاة والحج عن أول وقت الإمكان ذنوب تؤذن بعدم اكتراث فاعلها بالدين ، وقد عدوها فى الصغائر .

٥ ــ وقيل : الكبيرة ما كانت تشنيعاً بين المسلمين ، وفيها هتك لحرمة الله تعالى وهتك للدين .

٦ ــ وقيل ما كانت حراماً محضاً وسميت فى الشرع فاحشة ، كاللواط ، وشرع لها عقوبة محضة فى الدنيا بالحد أو فى الآخرة بالوعيد بالنار أو باللعن .

والكبيرة لا يكفرها إلا التوبة ، وأما الصغيرة فلها مكفرات كثيرة كالصلوات الخمس ، لما ورد أنها كفارات لما بينهن ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، والاستغفار ، والعمرة .

ويخطىء كثير من الناس فى أن الحج يكفر جميع الخطايا ، والحق أن الحج يكفر حقوق الله تعالى ، ويبقى على الحاج أن يقضى ما فاته من حقوق الله كالزكاة والصلاة ، ويرد مظالم العباد .

ويشترط لقبول التوبة من الكبيرة : رد مظالم العباد ، كرد المال المسروق ، أو المأكول ظلماً بالباطل ، واستبراء المزنى بها أو وليها من انتهاك عرضه ، فإن خاف على حياته استبرأه بوجه عام دون تفصيل .

العـــود فى الذنوب

إذا تاب المذنب من ذنبه ثم عاد إليه ، فما الحكم ؟

ينقسم الناس هنا إلى قسمين :

١ ـ صادق فى توبته الأولى ، لم يصر على ذنبه ، وليس فى نيته العودة إليه عند التوبة ، ثم عرض له فيما بعد ذلك ذنب آخر دون إعداد ولا ترتيب له ، ولا علم بوقوعه ، فارتكبه ، سواء كان ذلك الذنب هو الأول ، أو غيره من الذنوب ، وحينئذ يجب على المذنب أن يسارع بالتوبة بشروطها ، وصحت توبته الأولى والثانية مهما تكرر منه الذنب ، بشرط عدم الإصرار ، وعدم التفكير والترتيب لارتكابه.

٢ ـ تائب من ذنبه الأول على حب له ، وتمنٍ لمقارفته مرة أخرى ، لم يقتلع حب المحرم من قلبه ، ثم عرض له الذنب فارتكبه ، وهذا مستهزىء بربه ، وتسمى توبته توبة الكذابين . لأنه يتوب بلسانه على نية العودة إلى الذنب بقلبه .

• • •

الملحق الثاني

في بعض الأحاديث الواردة في التوبة

فضل الله ورحمته

١ — عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

« أخرجه مسلم والنسائي »

٢ — وعن صفوان بن عسال أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من قبل المغرب لبابا مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة ، فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض ، فلا يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها » أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والبيهقي .

٣ — وعن ابن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « للجنة ثمانية أبواب ، سبعة مغلقة ، وباب منها مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه » . « أخرجه الطبراني وأبو يعلى بإسناد جيد » والأبواب المغلقة تفتح بشفاعة الرسول كما جاء في الحديث .

٤ — وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ، ثم تبتم لتاب الله عليكم » .

« أخرجه ابن ماجه وإسناده جيد »

٥ – عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً . فإن أصبح ذهباً اتبعناك ، فدعا ربه ، فأتاه جبريل فقال : « إن ربك يقرئك السلام ويقول : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة » .

« أخرجه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح »

٦ – وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

« أخرجه ابن ماجه والترمذى وحسنه » يغرغر : تبلغ روحه الحلقوم عند الموت .

٧ – وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم . وجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

« أخرجه مسلم » . وذلك لتحقيق صفة العبد فى النسيان والخطأ . وصفة الله فى الغفران والكرم .

٨ – وعن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب

إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعا ، ومن أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهرول » .

« أخرجه مسلم وهذا لفظه ، والبخارى نحوه » .

٩ — وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه » .

« أخرجه ابن عساكر فى أماليه » .

١٠ — عن عائشة قالت : جاء خبيب بن الحارث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى رجل مقراف للذنوب . فقال : تب إلى الله يا خبيب قال : يا رسول الله ، إنى أتوب ثم أعود . قال : فكلما أذنبت فتب . قال : يا رسول الله ، إذن تكثر ذنوبى . قال : فعفو الله أكبر من ذنوبك » .

« أخرجه الحاكم فى المستدرك » . ولم يكن مصراً على الذنب أثناء التوبة ، فتوبة المصر على الذنب تسمى توبة الكذابين .

١١ — وعن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » .

« أخرجه الترمذى وصححه وابن حبان عن جابر ، وأبو يعلى عن كعب بن عجرة » .

١٢ — وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخاطئين التوابون » .

« أخرجه الترمذى وابن ماجه » .

١٣ — وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان رجل يسرف على نفسه ، فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مت فأحرقونى ثم اطحنونى ، ثم ذرونى فى الريح ، فوالله لئن قدر الله على ليعذبنى عذاباً ما عذبه أحداً . فلما مات فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجمعى ما فيك ، ففعلت ، فإذا هو قائم فقال : ما حملك على ما صنعت قال : خشيتك يارب ، أو قال : مخافتك . فغفر له » .

« أخرجه الشيخان والنسائى ومالك » .

١٤ — وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة » .

« أخرجه البخارى ومسلم » .

١٥ — وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله جل وعلا : وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين وأمنين ، إذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة . وإذا أمنته فى الدنيا أخفته فى الآخرة » .

« أخرجه ابن حبان فى صحيحه » .

١٦ – وعن العباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فهاجت الريح ، فوقع ما كان فيها من ورق نخر . وبقى ما كان فيها من ورق أخضر ، فقال رسول صلى الله عليه وسلم : « ما مثل هذه الشجرة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : مثل المؤمن إذا اقشعر من خشية الله تعالى رفعت عنه ذنوبه ، وبقيت له حسناته » .

« أخرجه البيهقى . وأحمد عن سلمان . نخر : جاف .

١٧ – وعن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

« أخرجه البخارى ومسلم » .

شؤم الإصرار على الذنب وعلى هوى النفس

١ – عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها ، وإن زاد زادت ، حتى يغلف بها قلبه ، فذلك الران الذى ذكر الله فى كتابه (كلا بل ران على قلوبهم) .

«أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم»

٢ — عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » .

أخرجه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً ، والوقف أرجح .

٣ — عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه » .

« أخرجه البخاري والترمذي والنسائي »

٤ — عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا من المدائن على فرسخ ، فلما جاءت الجمعة حضرنا فخطبنا حذيفة فقال : « إن الله عز وجل يقول : (**اقتربت الساعة وانشق القمر**) . ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق » . قلت لأبي : أيستبق الناس غداً ؟ قال : يا بني إنك لجاهل ، إنما يعني . اليوم العمل ، والجزاء غداً . فلما جاءت الجمعة الأخرى حضرنا ، فخطبنا حذيفة فقال : « إن الله يقول : (**اقتربت الساعة وانشق القمر**) . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة » .

« أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد » المضمار :

(ميدان سباق الخيل)

٥ ـ وعن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، كرجل كان بأرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل يجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود ، حتى جمعوا من ذلك سواداً ، وأججوا ناراً وأنضجوا ما فيها » .

« أخرجه أحمد والطبرانى والضياء المقدسى فى المختارة » . والمراد أن صغائر الذنوب تكثر حتى تهلك صاحبها ، كما تهلكه الكبيرة .

٦ ـ وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ فى النار صبغة ، ثم يقال له : يابن آدم هل رأيت خيراً قط (يعنى فى الدنيا) ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، فيقال له : يا بن آدم ، هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك من شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ما مر بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

« أخرجه مسلم »

٧ ـ وعن سمرة بن جندب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته » .

« أخرجه مسلم »

٨ – وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم : قال « لتؤدن الحقوق إلى أهلها ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » وفى رواية لأحمد بزيادة . « وحتى للذرة من الذرة » .

« أخرجه مسلم والترمذى » الجلحاء : ليس لها قرن .

٩ – وعن عبد الله بن أنيس أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الله العباد عراة غرلا بهما ، قال قلنا : وما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء . ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد ، كما يسمعه من قرب : أنا الديان ، أنا الملك ، لا ينبغى لأحد أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه ، حتى اللطمة . قال : قلنا : كيف وإننا نأتى عراة غرلا بهما ؟ قال : الحسنات والسيئات » .

« أخرجه أحمد وإسناده حسن » غرلا : غير مختونين .

١٠ – وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المفلس فينا ؟ قلنا : المفلس من لا دينار له ولا درهم ، قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » .

« أخرجه مسلم » وفيه خطر الإقامة على الذنب دون المبادرة بالتوبة.

١١ — وعن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال : رجلان من أمتى بين يدى رب العزة ، فقال أحدهما : يا رب ، خذ لى مظلمتى من أخى ، فقال الله : كيف تصنع بأخيك ، ولم يبق من حسناته شىء ؟ قال : رب ، فليحمل من أوزارى . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك يوم عظيم ، يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم ». الحديث .

« أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد » .

١٢ — وعنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مخاطبة العبد لربه ، فيقول : يا رب ، ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . قال : إنى لا أجيز اليوم على نفسى شاهداً إلا منى . فيقول : كفى بنفسك اليوم حسيباً ، والكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ويقول لأركانه : انطقى . فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل » .

« أخرجه مسلم » .

١٣ — وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ضرب مملوكه سوطاً ظلماً ، اقتص منه يوم القيامة » .

وإنما كان هذا الترهيب فى السنة حثاً للمسلمين على المبادرة بالتوبة ، والله غفور رحيم يقبل التوبة عن عباده إذا صدقوا وندموا .

فضل المبادرة بالتوبة

١ ــ عن معاذ بن جبل قال : قلت : يا رسول الله أوصني . قال : « عليك بتقوى الله ما استطعت ، واذكر الله عند كل حجر وشجر ، وما عملت من سوء فأحدث له توبة ، والسر بالسر ، والعلانية بالعلانية»

« أخرجه الطبراني والبيهقي » .

٢ ــ عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله ، وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة ، واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتي بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » .

« أخرجه الأصبهاني في ترغيبه ، وإسناده حسن » .

٣ ــ وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت لأخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم ، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له عمل صالح أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه » .

أخرجه البخاري وأحمد .

٤ ـ عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أومرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال ، فشر غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر » .

« أخرجه الترمذي وحسنه » فقراً منسياً : يشغلكم عن الطاعة .
هرماً مفنداً : يجلب عليكم الفند ، وهو الخرف وفساد العقل .

٥ ـ وعن شداد بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .

« أخرجه ابن ماجه والترمذي وحسنه » .

٦ ـ وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سعادة المرء أن يطول عمره ، وأن يرزقه الله الإنابة » .

« أخرجه الحاكم ووافقه الذهبي » .

٧ ـ وعن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته ، يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع ، فأطعموا طعامكم الأتقياء ، وأولوا معروفكم المؤمنين » .

« أخرجه ابن حبان وابن أبي الدنيا » الآخية : حبل يشد إليه الفرس .

٨ ــ وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » .

« أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن » أدلج : سار من أول الليل ، والمراد : من خاف بادر بسلوك طريق الجنة .

٩ ــ وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد » .

« أخرجه مسلم »

١٠ ــ وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو تعلمون ما أعلم ، لبكيتم كثيراً ، ولضحكتم قليلا ، ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون إلى الله ، لا تدرون تنجون أو لاتنجون » .

« أخرجه الحاكم وأحمد في الزهد ، والشيخان عن أنس » الصعدات الطرق . تجأرون : ترفعون أصواتكم .

التوبة تمحو الخطايا

١ ــ عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

« أخرجه ابن ماجه والطبراني وسنده من رجال الصحيح »

٢ ــ وعن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهى حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله ، أصبت حداً فأقمه على . فدعا نبي الله صلى الله عليه وسلم وليها فقال : « أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتنى بها » ففعل ، فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : « لقد تابت توبة لو قسمت على أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل » .

« أخرجه مسلم »

٣ ــ وعن أبى هريرة أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، فأصبت منها ما دون أن أمسها ، فأنا هذا فاقض فى ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك . قال : فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فتلا عليه هذه الآية : (**أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**) . فقال رجل من القوم : يا نبى الله ، هذا له خاصة ؟ قال : « بل للناس كافة » .

« أخرجه مسلم »

٤ ــ وعن أبى طويل أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها ، ولم يترك منها شيئاً ، وهو فى ذلك لم يترك حاجة (صغيرة) ولا داجة (كبيرة) إلا أتاها ، فهل لذلك

من توبة ؟ قال : « فهل أسلمت » ؟ قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . قال : « تفعل الخيرات وتترك السيئات ، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن » . قال : وغدراتى وفجراتى ؟ قال : « نعم » قال : الله أكبر . فما زال يكبر حتى توارى .

« أخرجه الطبرانى وهذا لفظه . قال الهيثمى : إسناده جيد قوى وكذا البزار » .

فضل الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

١ ــ عن أبى ذر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : يابنى آدم ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستهدونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، فاسألونى أعطكم ، وكلكم ضال إلا من هديت فاستهدونى أهدكم ، ومن استغفرنى وهو يعلم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالى » الحديث .

« أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه والبيهقى » . وهو توجيه إلى طلب المغفرة من الله ، وإلى طلب الغنى والهدى من الله ، لأن طلبهما من عند غير الله قد يوقع الإنسان فى التخليط فى المكاسب ، وفى العمل المضل عن هدى الله .

٢ ــ وعن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قال إبليس : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى

أجسادهم . فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى ، لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

« أخرجه أحمد والحاكم » .

٣ ــ وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

« أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه » .

٤ ــ وعن أم عصمة العوصية قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف الملك ثلاث ساعات ، فإن استغفر من ذنبه لم يكتبه عليه ، ولم يعذبه الله يوم القيامة » .

« أخرجه الحاكم فى المستدرك وقال : صحيح الإسناد »

٥ ــ وعن على قال : كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعنى به بما شاء أن ينفعنى ، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته ، فإذا حلف لى صدقته . قال : وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد يقترف ذنباً ، فيحسن الطهور ، ثم يقوم فيصلى ركعتين ، ثم يستغفر الله إلا غفر له » ثم قرأ هذه الآية : **(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)** الآية .

« أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان » .

٦ ــ وعن جابر عن أبيه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : واذنوباه ، واذنوباه ، فقال هذا القول مرتين أو ثلاثاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى عندي من عملي ، فقالها . فقال : عد ، فعاد . ثم قال : عد فعاد قال : قد غفر الله لك » .

« أخرجه الحاكم وقال : رواته مدنيون لا يعرف واحد منهم بجرح » ، وإنما استجاب الله لهذا الرجل لأنه جاء فزعاً إلى الله من ذنوبه ، نادماً عليها ، راغباً عازماً على التوبة ، فليس مجرد النطق بهذا الدعاء مستوجباً للمغفرة .

٧ ــ وعن البراء قال له رجل : يا أبا عمارة ، **(ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)** . أهو الرجل يلقى العدو فيقاتل حتى يقتل ؟ قال : لا ، ولكن هو الرجل يذنب الذنب فيقول : « لا يغفره الله » .

« أخرجه الحاكم موقوفاً على البراء وقال : صحيح على شرطهما »

٨ ــ وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه بها عشر سيئات ، ورفعه بها عشر درجات » .

« أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم » .

٩ ــ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا

على ، فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة من الجنة لا ينبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة » .

« أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى » .

ودعاء الوسيلة هو : « اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته » .

١٠ ــ وعن أبى بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال : يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه : قال أبى بن كعب : فقلت يا رسول الله ، إنى أكثر الصلاة ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال : ما شئت . قال : قلت : الربع ؟ قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك . قال : فالنصف ؟ قال : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك . قال : فالثلثين ؟ قال : ما شئت وإن زدت فهو خير لك . قال : أجعل صلاتى لك كلها ؟ قال : « إذن تكفى همك ، ويغفر لك ذنبك » .

١١ ــ وعن على قال : « كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم » .

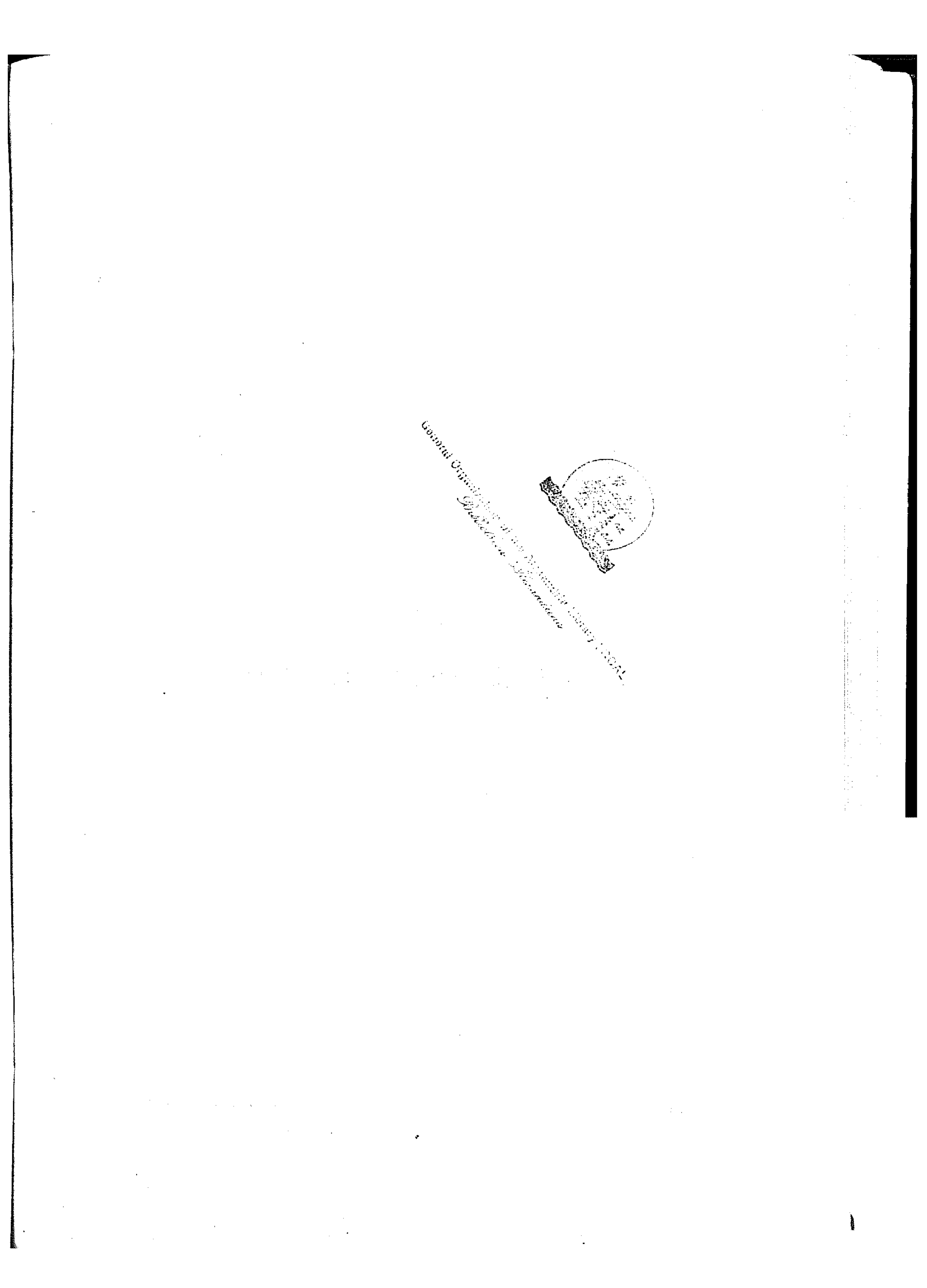
« أخرجه الطبرانى ورواته ثقات والترمذى عن عمر موقوفاً » .

والمراد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى أول الدعاء وفى آخره .

* * *

أحكام التوبة

للعلامة المحقق : عبد الغني بن إسماعيل النابلسي



معنى التـوبة

التوبة بحسب الشرع تختلف باختلاف الذنب . فإن كان الذنب بينك وبين الله كانت التوبة منه كذلك بينك وبين ربك . وذلك : أن تترك فعله . وتندم عليه . وتعزم على ألا تعود إليه ، ويصح ذلك من جميع الذنوب ومن بعضها دون بعض . ولا يمنع من صحة التوبة عودك إلى ذلك الذنب بعينه بعد أن يوجد منك العزم على عدم العود إليه حين التوبة ، قال تعالى : « **إن الله يحب التوابين** » . والتواب صيغة مبالغة ، أى الكثير التوبة ، بمعنى أنه كلما تاب من الذنب ثم عاد إليه ثانياً بتقدير الله تعالى يتوب منه ثانياً ، ولا يصر على شيء من الذنوب .

والمؤمن كذلك ، فإن الإنسان قابل للموت فى كل نفس . والموت تارة يكون بسبب كالمرض ونحوه ، وتارة يكون بغير سبب كالموت فجأة . وذلك موجود شائع ، فمن أذنب وتاب بناء على خوفه من هجوم الموت ، ثم أذنب وتاب كذلك . صحت توبته باعتبار عزمه على ألا يعود ، لعدم تحققه بدوام الحياة . وهو داخل تحت قوله تعالى : « **إن الله يحب التوابين** » . فهو محبوب الله تعالى على كل حال .

وأما إن كان الذنب بينك وبين مثلك من المخلوقات فلا بد أن تكون التوبة بينك وبين الله تعالى أيضاً ، لأن الله نهى عن ظلم العباد بعضهم

بعضاً . فتحتاج التوبة إلى جميع ما تقدم مع زيادة المسامحة من ذلك العبد الذى ظلمته إن كان حياً وأمكن ذلك ، فإن كان ميتاً ، أو كان حياً ولم يسامحك لشدة منه لا لتقصير منك فى حقه ، فأخلص فيما بينك وبين الله تعالى فى ترك ذلك الظلم ، والندم عليه ، والعزم على ألا تعود ، ودم على ذلك ، فإن الله تعالى إما أن ييسر لك مسامحة ذلك المظلوم ، أو يكافئه عنك ويرضيه يوم القيامة . . وإياك إياك أن تيأس من رحمة مولاك .

أما التوبة بحسب الحقيقة فهى خلعة من خلع الله تعالى يلبسها لمن يشاء من أهل اختصاصه ، وهى على قسمين : توبة العامة ، وتوبة الخاصة .

أما توبة العامة فهى : كشف قناع الأغيار عن وجوه الأسرار ، وذلك بقتل النفس بسيف المجاهدة ، قال تعالى : « **فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم** » .

واعلم أن النفس كيفية فى البدن تعامل الجسم بسبب ما يقتضيه من المزاج ، والنفس هى هذا المقتضى . أرأيت أن الشمس إذا وقعت على الزجاجات المتلونة تظهر من كل زجاجة بلون تلك الزجاجة . وكذلك الروح إذا اتصلت بكل جسم تظهر فيه بمقتضيات ذلك الجسم . فتظهر فى جسم الإنسان بمقتضيات الإنسانية ، وفى الحيوان بمقتضى الحيوانية ، وفى النبات بمقتضى النباتية ، وكذلك فى المعادن . فهذه هى النفس ، ولهذا تتفاضل النفس وتختلف ، ولا يمكن أن تدخل تحت نوع ولا جنس ، بل يكاد أن يكون كل جسم من أجسام النوع له نفس لا تشبه نفس الجسم الآخر ، وإنما يظهر ذلك كله فى الأمزجة ،

فإن اختلافها أثر اختلاف النفوس الذى هو أثر اختلاف الجسم . قال تعالى : « **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** » . فأرض الجسم قبل إنزال ماء الروحانية عليه من سحاب اللوح المحفوظ الحائل بيننا وبين سماء القلم الأعلى كامنة فيها النفس كمون النبات فى الأرض ، وماء الروحانية يخرج نبات النفس ، فمن النفوس الخبيث والطيب ، قال تعالى : « **تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل** » .

فمن قال إن النفس هى الروح فباعتبار أنها كيفية ظهرت بها الروح بسبب اتصالها من أرض الجسم بهذا الجسم المخصوص ، وبعد انفصال الروح تبقى عليها تلك الكيفية لحكمة لها ، بها تمتاز فى عالم البرزخ عن النفس الأخرى ، وبها يجتمع الموتى ويتساءلون كما ورد فى الأخبار .

ومن قال إن النفس غير الروح فباعتبار أن تلك الروح كانت موجودة ولا نفس ، كما ورد أن الله خلق الأرواح قبل الأجسام بألفى عام . . والحق عندى أن الروح غير النفس ، وأن الأرواح لا تفاضل فيها ولا تفاوت بينها ، وإنما التفاضل والتفاوت فى النفوس ، فمنها النفوس الكافرة ، والنفوس المؤمنة ، والنفوس المطمئنة ، والنفوس المطيعة ، والنفوس العاصية ، والنفوس الخبيثة ، والنفوس الطيبة ، إلى غير ذلك من الصفات المختلفة التى تعترى النفوس . وأما الأرواح فكلها طاهرة طيبة ، قال تعالى : « **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى** » . وقال : « **وما أمرنا إلا واحدة** » .

وأما ما ورد من الأخبار من أن أرواح الكفار خبيثة معذبة فالمراد بها النفوس بحسب القول الأول . أرأيت أن الزبانية الذين يعذبون أهل النار وهم لا يتعذبون فيها لأنهم أرواح مطهرة .

وصل لإيضاح هذا الأصل :

قتل النفس عبارة عن التخلص من تلك الكيفية إلى فضاء الروحانية . والمراد بذلك رجحان جانب الروح على جانب الجسم . قال تعالى : « **فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية** » . فأثبت الثقل فى موازين العيشة الراضية . والثقل يقتضى الرجحان على ما يقابله فى الكفة الأخرى من الميزان . إذ لا بد من المقابل . ولهذا نقول : إنه لا بد من الذنب ولو فى حق الأنبياء عليهم السلام . لأن أعمالهم توزن بأعمال أممهم . بخلاف الكفار . فإن الله تعالى يقول عنهم : « **ولا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** » . لأنه لا حسنات لهم توضع فى كفة الحسنات . قال تعالى : « **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً** » .

فمن جاهد نفسه المجاهدة المشروعة . ودخل الخلوة المسنونة . وراضها برياضة لا بدعة فيها . فقد أدرك التوبة . وصدق عليه أنه تائب توبة العامة .

وأما توبة الخاصة فهى التوبة من التوبة . قال شاعرهم :

يا ربة العود خذى فى الغناء   وحركى من صوته ما ونى
فإن مسود قميص الدجا   لونه الصبح بما لونا
وفاز بالتوبة قوم وما   تاب من التوبة إلا أنا

وبيان ذلك : أن التوبة من صنع العبد ، والعبد وصنعه من صنع الله تعالى . فأى عبد صنع التوبة فقد غفل عن كون الله تعالى صنعه وصنع توبته ، والغفلة ذنب يحتاج إلى توبة ، ولهذا قلنا فى توبة الخاصة هى التوبة من التوبة . قال تعالى : « **ثم تاب عليهم ليتوبوا** » . ومن تاب الله عليه فقد صنع له توبة ، ومن صنع له توبة فقد تاب ، فهو بمنزلة قوله تعالى : « **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** » . فمشيئتنا أثر من مشيئة الله تعالى ، كما أن توبتنا أثر من توبة الله علينا ، ولهذا كان من أسمائه تعالى التواب .

سر التوبة

أما سرها فمحبة الله تعالى للعبد التائب ، قال تعالى : « **إن الله يحب التوابين** » . وفى الحقيقة محبة الله تعالى للتوابين محبته لنفسه ، لأن التواب لا نفس له مع ربه كما قدمنا ، وذكر اسم الله الجامع « **الله** » فى محبته للتوابين دون بقية الأسماء زيادة بشارة لهم بنهاية قربه .

والسبب فى محبته تعالى للتوابين : أن المحبة القديمة التى هى عين الذات العلية لها ظهور تام فى عالمها الذى هو عينها ، ولها ظهور فى عالم الأسماء والصفات ، ولها ظهور فى عالم الأفعال والمنفعلات ، وجميع ما عدا الذات نسب وإضافات موجودة على التنزيه التام بالنسبة إلينا ، غير موجودة بالنسبة إليه تعالى ، ومقام التوبة يقتضى عدم الذنب ، والذنب هو تعين الوجود مع الرب المعبود ، فإذا ذهبت الإضافات وانقطعت

الإشارات ، ورجع تنزيه المنزهين إليهم ، ورد تسبيح المسبحين عليهم وخرست المسمون ، وأبكمت الواصفون ، وقرأ القارئ « **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** » **فعند ذلك تظهر** سلطنة المحبة القديمة المنزهة عن كل تنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه .

ولا شك أن من أسمائه تعالى التواب ، والتواب يجمع على توابين بالنسبة إلى تماثيل العالمين . قال تعالى : «**إن الله يحب التوابين**» . وإنما تعدد التواب لضيق الإمكان عن سعة تجليات الواجب الوجود ، فإن من أراد أن يدخل قناطير الدقيق فى سم الإبرة أدخل شيئاً فشيئاً لضرورة الضيق لا لعجز القادر الحكيم ، والله بكل شىء عليم .

حال التـوبة

وأما حال التوبة بحسب الشرع فهو النجاة من غضب الله تعالى الذى كان العبد مستحقاً له بفعله الذنب ، فإن أهل السنة والجماعة أجمعوا على أن العاصى فى مشيئة الله ، فإن شاء عذبه ، وإن شاء عفاعنه ، قال تعالى : « **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** » . . يعنى من غير توبة ، فإنه بالتوبة يغفر الشرك أيضاً ، وتوبة المشرك هى الإيمان ، حتى لا يجوز القطع للعصاة بالنار باعتبار هذه الآية ، وإنما لابد لطائفة من العصاة لا بأعيانهم من دخول النار ثم يموتون فيها ، حتى لا يحسوا بألم العذاب إلا ساعة خروجهم منها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أدخل الله الموحدين النار أماتهم فيها إماتة ، فإذا أراد أن يخرجهم منها أمسهم ألم العذاب تلك الساعة » .

وهذا الحديث دليل على أن طائفة من الموحدين لم يشأ الله تعالى مغفرة ذنوبهم لابد أن يدخلوا النار بسبب ذنوبهم حيث ماتوا من غير توبة ، ولابد من ذلك ليصدق الوعيد الوارد فى حق العصاة ولو فى البعض ، وليصدق الوعد الوارد فى بعض آخرين أيضاً بمغفرة الله تعالى لهم من غير توبة ، فيبقى الموحــدون المعترفون للذنوب غير المستحلين لها إذا ماتوا من غير توبة ، ولابد من عذاب طائفة منهم والعفو عن طائفة أخرى ، ولكن لا يعلم المعذبون من المعفو عنهم ولا يصح القطع للموحدين بالجنة إلا مآلا .. وأما قول القائل :

إن قلبى يقــول لى   واسانى يصـــدق
كل من مات مسلما   ليس بالنار يحـرق

فلا يتخرج على مذهب أهل السنة والجماعة فى حق طائفة من المذنبين لعدم القطع فى حقهم بالمغفرة من غير توبة ، فيتخصص بعض مفهوم لفظة (كل) الدالة على عموم مدخولها ،

وأما حال التوبة فى الحقيقة فهو ظهور وحدة الوجود على التنزيه التام واستغراق الكثرة فيها ، حتى يخرس التائب على الأبد ، كما ورد فى الحديث : « من عرف الله كل لسانه » . **« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »** .

مقـام التـوبة

وأما مقام التوبة فهو بحسب الشريعة : ترادف نعم الله تعالى على ذلك العبد التائب ، ولهذا تبدل جميع سيئاته حسنات ، قال الله تعالى : (**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**) . وهل هذا التبديل تبديل صورة السيئة مع بقاء ذاتها فى الصحيفة ، أو محوها وإثبات حسنة فى موضعها ؟

والذى يظهر لى : تبديل الصورة لا الذات . فإن صحيفة السيئات سوداء مظلمة . فإذا تاب العبد منها أشرق نور توبته الثابت فى صحيفة الحسنات على صحيفة السيئات ، فزال ذلك السواد وتلك الظلمة ، فيبدل الله السيئات حسنات . وانتقلت إلى صحيفة الحسنات كما هى من العظم والخفة . ولهذا نقول : إن المذنب التائب أفضل من غير المذنب ، لأنه قام بغرض هو التوبة ، بخلاف غير المذنب . أو لأن السيئة أعظم من الحسنة ، نظراً إلى عظمة المعصى وحقارة العاصى ، فإذا تبدلت حسنة كانت أعظم من الحسنة التى هى حسنة ابتداء ، لأن الحسنات وإن عظمت لا تبلغ عظم السيئات . قال تعالى فى حق المحسنين : « **وما قدروا الله حق قدره** » .

وصل فى توبة البأس :

قال الله تعالى : « **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله فى**

الذين خلوا من قبل وخسر هنالك الكافرون » . وقال تعالى : « **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** » .

وقد أجمع العلماء على أن الإيمان فى وقت مشاهدة البأس والعذاب غير مقبول من أحد بمقتضى هذه الآية ، ولم يستثن الله تعالى من ذلك « **إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** » . فبقى من عدا ذلك إيمانهم غير مقبول فى وقت مشاهدة عذاب الله تعالى .

والحكمة فى عدم قبول الإيمان وقت مشاهدة العذاب أن ذلك وقت انغلاق باب التوبة بالموت ، فلا يبقى للتوبة باب تدخل منه إلى حضرة الله تعالى عند خروجها من هذا التائب ، فإن كان كافراً لابد أن يتوب من كفره عند موته ، ولكن يصادف باب التوبة مغلوقاً فلا يفتح له . قال تعالى : « **لا تفتح لهم أبواب السماء** » . وقال تعالى : « **يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل** » . والإنسان فى ليل ، فإذا مات طلع نهاره ، ولهذا قال تعالى: « **يوم لا ينفع** » الآية .

ولا يقال : إن باب التوبة يغلق بالموت ، والتائب من الكفر فى فى وقت مشاهدة الموت له حياة ، فالباب غير مغلق حينئذ ، لأنا نقول التوبة من الكفر عظيمة ، لأنها رجوع عن شىء عظيم وهو الكفر ، وانغلاق بعض الباب فى وقت حضور الموت يمنع من خروجها منه لعظمها . ولهذا أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث أن للتوبة

باباً عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب . فإذا ضاق بغلق بعضه لا يحتمل التوبة من الكفر . فلهذا لا تقبل التوبة عند رؤية البأس .

توبة المؤمن عند الموت :

وأما توبة المؤمن عند حضور الموت من بقية الذنوب فقد اختلف العلماء فيها .

فقال بعضهم : لا تقبل . واستدلوا بقوله تعالى : « **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار** » .وقال بعضهم : تقبل ، واستدلوا بما روى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » . وعن عطاء : ولو قبل موته بفواق ناقة . وعن الحسن رضى الله عنه أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض : وعزتك وجلالك لا أفارق ابن آدم وروحه فى جسده . فقال : « وعزتى وجلالى لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر » .

والأولى أن يقال : إن التوبة مقبولة من سائر الذنوب ما عدا الكفر ما دام فى الميت بعض رمق يمكنه أن يدرك التوبة به ويقصدها ، أخذاً من إطلاق قوله تعالى : « **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده** » . وغلق بعض بابها لحضور الموت لا يمنع من خروجها منه ، لأن عظمها دون عظم التوبة من الكفر . ومن تأمل قوله تعالى هنا : « **عن عباده** » ولم يقل : من عباده ، فهم من إشارة الآية أن العبد إذا وصل فى

قرب الموت إلى حالة لا يستطيع التوبة فإن الله تعالى يقبل توبته التى يقوم تعالى مقامه فى صدورها عنه . وأما الآية السابقة فالمراد بالسيئات فيها أنواع الكفر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعنى توبتهم لا تقبل بعد موتهم عند مشاهدة عالم الآخرة ، فبقى المعنى : أن الكفار لا تقبل توبتهم فى وقت البأس ، سواء تابوا حين حضور الموت فى وقت الغرغرة أو بعده فى انتقالهم إلى عالم البرزخ .

توبة المنتحر :

ومن قتل نفسه ثم تاب من ذلك فى وقت مباشرة أسباب الموت قبل انفصال روحه من جسده فقبول توبته على هذا الخلاف المذكور والصواب أن يقال : إن تاب فى حالة يقدر فيها على إزالة أسباب الموت والعودة إلى الحياة لم تقبل ، لأنها توبة مباشرة المعصية . وإلا قبلت .

وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يقتل بها نفسه فى نار جهنم خالداً فيها أبداً ، ومن تردى من موضع فهو يتردى فى نار جهنم خالداً فيها أبداً » فمحمول على استحلال قتل نفسه من شدة غيظه ، ولم يندم على ذلك حتى مات ، وإلا فمن لم يستحل قتل نفسه ، وباشر أسباب الموت ، فإنه إذا أحس بذلك لابد أن يندم قبل الموت ويهم بالخلاص ، وذلك توبة ، وتوبته مقبولة فى تلك الحالة . فلابد أن يكون الاستحلال محمل الحديث .

توبة الكافرين :

ونقل عن الفقهاء : أن كل كافر تاب فى حياته الدنيا قبل ساعة موته فإنه تقبل توبته ، وتوبته إسلامه وبراءته من كل دين يخالف دين محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء كان كتابياً أو مجوسياً أو مرتداً أو غير ذلك من أنواع الكفر .

واستثنوا من ذلك جماعة : منهم من كان كفره بسبب نبى من الأنبياء عليهم السلام . يعنى كان مسلماً فكفر بسبب سبه لنبى من الأنبياء ، لا الكافر الأصلى إذا سب نبياً من الأنبياء . فإنه يعزر ولا يقتل .

وذلك لأن من سب نبياً كان مؤمناً من قبل إيماناً صحيحاً ، بأن كان مسلماً ، لا إيمان دعوى كإيمان اليهود بموسى . والنصارى بعيسى عليهما السلام ، فإن ذمته تعتبر مشغولة بكفره وحق عبد معصوم مما ذكر بيقين ، ولا تمكن المسامحة لغيبة ذلك النبى عنه . وشرط التوبة المسامحة فى قبول حقوق العباد . فلا تكون توبته مقبولة بالنسبة إلينا ، أما فيما بينه وبين الله تعالى فإن أخلص فى التوبة باطناً حيث لم تحصل المسامحة له من ذلك المسبوب لتعذرها فإن توبته مقبولة ولا يأس من رحمة الله تعالى .

ومن ذلك الكافر بالزندقة إذا لم يتب بنفسه قبل الأخذ . فإن توبته لا تقبل أيضاً . والمراد بالزندقة هنا : الذى لا يتدين بدين من الأديان ، بل يعتقد أن الأديان كلها صواب وحق من جهة ما هى

عليه من الكفر بالله تعالى وبالأنبياء عليهم السلام ، فإن توبة هذا لا يمكن أن تحصل أبداً ، فإنه لا يرى فى العالم كفراً ولا شركاً ولا معصية من حيث ذلك موجود فى العالم ، وجميع ذلك بالنسبة إلى ظاهر الشرع ، وأما ديانة فتوبته مقبولة إذا أخلص لله تعالى ، وميز بين عداوته وصداقته .

واعلم أن الأديان كلها بالنسبة إلى المتدينين بها من الخلق تنقسم إلى قسمين : دين واحد حق هو دين الإسلام ، وأديان جميعها باطلة وهى ما سوى دين الإسلام ، وأما بالنسبة إلى الخالق سبحانه وتعالى فجميع الأديان الباطلة والحقة مخلوقة له تعالى ، وهو خالقها ، وقد قال تعالى : « **وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها** » . أى انقادوا إليه تعالى طائعين فى حق المؤمنين ، ومكرهين فى حق الكافرين لأنه لا خالق غيره فمن نظر إلى ما يظهر من كلا الفريقين وقال : إن جميع ذلك صواب فهو الزنديق ، ومن لم ينظر إلى ما يظهر من كلا الفريقين ، وإنما نظر إلى يد الله العليا فوق أيديهم ، واعتقد أن جميع ما يصدر منها صواب فهو الصديق .

والفرق بينهما دقيق لا يدرك إلا بعناية من الله تعالى وتوفيق . فربما يظهر الصديق فى حلية الزنديق ، وربما يظهر الزنديق فى حلية الصديق ، وموقع النظر واحد وهو الخلق ، فمن نظر إلى الخلق وقال : إنهم كلهم على صواب ؛ فإما أن ينظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم ويقول ذلك فهو الصديق ، وإما أن ينظر إليهم

من حيث ذواتهم ويقول ذلك فهو الزنديق . وسبب ذلك أن من نظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم فحكم بالتساوى بينهم لأن الله تعالى يقول : « **ما فى خلق الرحمن من تفاوت** » . « **الله خالق كل شىء** » . فلا يكلف الفرق والتميز من حيث صدور الجميع عن خلق الله ، وهو صادق فى حكمه بذلك ، لأنه مأمور بالإيمان بذلك ، وأما من نظر إليهم من حيث ذواتهم المأمورة وما هم عليه من الأحوال فحكم بالتساوى بينهم ، فذلك خطأ محض وجهل ، قال تعالى : « **أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** » . . وقال : « **أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون** » . وإنما يكلف إلى الفرق والتميز حينئذ ، وهو كاذب فى حكمه بالتساوى بينهم .

توبة الساحر :

ومن جملة من لم يحكم بقبول توبتهم أيضاً الكافر بالسحر ولو كان امرأة والسحر هو استعمال الشياطين الخبيثة بعد موالاتهم وصحبتهم فى أمر محرم شرعاً . واختلفوا فى كفر الساحر . فعند الشافعى رحمه الله إن اقترن بكفر فهو كفر ، وإلا فكبيرة . وعند أبى حنيفة رحمه الله هو كفر مطلقاً . ومنشأ الخلاف أن موالاة الشياطين وصحبتهم تتصور بدون متابعتهم فى الكفر ، فمن قال بالأول علل بذلك ، مستدلا بقضية سليمان عليه السلام واستعماله الشياطين ، قال تعالى : « **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا** » ومن قال بالثانى علل بأنه لا يتصور

ذلك إلا بعد متابعتهم فى الكفر ، وأما قضية سليمان عليه السلام فليست من قبيل السحر ، لأنها خلافة إلهية بتسخير العوالم له من جهة الله تعالى.

وبعد حكم أبى حنيفة بكفر الساحر بناء على أنه لا يتصور منه السحر إلا بعد متابعة الشياطين فى كفرهم حكم بعدم قبول توبته ، وهذا بحسب ظاهر الشرع أيضاً ، وأما ما بينه وبين الله تعالى فإن باب التوبة مفتوح لكل إنسان مدة حياته كما قدمنا .

توبة الرافضة :

وأما توبة الرافضة فمن سب الشيخين أو لعنهما أو أحدهما يكفر عند أبى حنيفة ، وكذلك إذا أنكر خلافتهما أو أبغضهما لمحبة النبى صلى الله عليه وسلم لهما ، وإن فضل علياً عليهما فهو مبتدع ، وإن أحبه أكثر منهما لا يؤخذ بذلك ، وبقية الأئمة لم يحكموا بكفر من سب الشيخين أو لعنهما ، وإنما أثبتوا له الفسق والتأديب .

وقد استدل أبو حنيفة بما ثبت عنده من حديث الديلمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأيتموه يذكر أبا بكر وعمر بسوء فاقتلوه فإنما يريدنى والإسلام » وإذا كفر من سب الشيخين عند أبى حنيفة يقتل ولا تقبل توبته ، بناء على قول النبى صلى الله عليه وسلم : « فإنما يريدنى » . فقد أنزل الشيخين منزلته فى هذا الحديث ، فجعل ذكرهما بسوء عين ذكره بسوء خصوصية لهما ، دون بقية الصحابة لما لهما من الفضيلة والمزية على الجميع .

فصل فى أسرار الشريعة فى عدم قبول توبة هؤلاء الأربعة :

وهم الذى سب نبياً ، والذى سب الشيخين ، والزنديق ، والساحر على حسب ما ذهب إليه إمامنا أبو حنيفة رحمه الله .

أما الذى سب نبياً من الأنبياء عليهم السلام فالسر فى عدم قبول توبته فى ظاهر الشريعة أنه بسبه ذلك النبى قطع الرقيقة التى يأتيه الإمداد منها . والمتصلة فى قلبه العامر بالإيمان إلى حضرة رقائق الأنبياء عليهم السلام .

وذلك أن كل مولود يولد على فطرة الإسلام . يعنى على تلك الرقيقة المتصلة ، فإذا هوده أبواه أو نصراه أو مجساه أشغلاه عن ملاحظة تلك الرقيقة المتصلة فيه ، فإذا سب نبياً مع ذلك قبلت الشريعة توبته ، لعدم ملاحظته لتلك الرقيقة بعد . وأما المولود على الفطرة إذا نشأ ملاحظاً لها ، ولم يشتغل عنها بشىء من الكفر ، أو اشتغل ثم لاحظها ، وتحقق بها ، فإنه إذا سب نبياً من الأنبياء عليهم السلام تنقطع تلك الرقيقة المتصلة بقلبه من حضرات الأنبياء عليهم السلام ، فلا يمكن اتصالها بعد ذلك لتعود الفطرة الإسلامية . فلهذا لا تتصور التوبة بحسب ظاهر الشريعة .

وإن رقائق العالم الروحانى والعالم الجسمانى جميعها متصلة برقائق الأنبياء عليهم السلام ، ورقائق الأنبياء عليهم السلام متصلة بالحضرة المحمدية بحكم الميثاق المأخوذ منهم بالإيمان به وبنصرته ، فهى ممدة للكل بعد استمدادها من حضرة الأزل ، فهى عرش التجليات الرحمانية ،

والشرع الذى هو قلب حروف هذا العرش هو الحاكم بعد قبول توبة من انقطعت رقيقته عنه ، وإنما يأتيه قبول التوبة باطناً فيما بينه وبين الله تعالى من جهة وجهه الخاص الذى لربه حيث قال تعالى فى ذلك : « **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** » .

فحين انقطع عنه حبل الوريد بسبب انقطاع الرقيقة المذكورة كان الله تعالى أقرب إليه من غير تلك الرقيقة ، فوصله به لشدة ما رأى من إخلاصه فى توبته .

واعلم أن رقائق القلوب جميعاً خارجة من اللوح المحفوظ مثل خروج الشعاعات المنبعثة من عين الشمس المنبثة على جميع الأجرام الأرضية ، كل جرم له رقيقة متصلة به خارجة من منبع الشعاعات ، متميزة فى ذاتها ، لكن لا يظهر تميزها ، فإذا حجبها حاجب عن ذلك الجرم الأرضى رجعت إلى أصلها ، الذى هو ينبوع الشعاعات كلها ، وكانت متميزة كما كانت قبل ذلك ، ولكن تميزاً خفياً لا يدرك ، وليست الشعاعات نفس الشمس ، وإنما هى رقائق ممتدة منها ، مستعدة للاتصال بالأجرام ، هكذا فافهم جميع الروحانيات فى هذا العالم .

ثم إن ذلك اللوح المحفوظ الذى ذكرنا أنه بمنزلة الشمس فى خروج الرقائق منه ، واتصالها بالأجرام الأرضية والسماوية مجلى لظهور القلم الأعلى الذى هو روح القدس فيه ، وموضع لتفصيل علومه ، وجميع ما ينزل إلينا من اللوح المحفوظ إنما هو مستمد منه ، والرقائق الخارجة منه إنما هى فى الحقيقة خارجة من ذلك القلم الأعلى ، لأنه محل إجمالها .

فأول ما تفصل من إجمال روح القدس فى اللوح المحفوظ أرواح الأنبياء عليهم السلام ، ثم أرواح بقية العوالم متفصلة من مجمل أرواح الأنبياء ، ولهذا قلنا : فى عدم قبول توبة من سب نبياً من الأنبياء عليهم السلام بعد ملاحظة تلك الرقيقة المتصلة ، وعدم الغفلة عنها : إنها تنقطع فلا يمكن وصلها شرعاً إلا من الوجه الخاص الذى لله تعالى إلى كل شىء . وقول الخليل عليه السلام عن قومه : « **فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم** » مشير إلى ما ذكرناه .

وأما عدم قبول توبة من سب الشيخين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، فإنه صلى الله عليه وسلم أنزلها منزلة نفسه فيما تقدم من الحديث . ويؤيد ذلك فى الصديق قوله تعالى : « **ثانى اثنين إذ هما فى الغار** » . . أى واحد من اثنين غير معين ، فأوقع الإبهام لوجود الشبه بينهما ، فروحانية الشيخين مستمدة من روحانيته صلى الله عليه وسلم قال تعالى : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** » . وروحانيته صلى الله عليه وسلم هى روح الكل المستمدة منها أرواح الأنبياء ، فوقع الاشتراك فى الاستمداد منه صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ورد فى الحديث : « العلماء ورثة الأنبياء » . وهذا الاستمداد الروحانى لعلماء الأمة يتفاوت فى ذاته . فليس استمداد الصديق كاستمداد عمر رضى الله عنهما ، ولا استمدادهما الأتم كاستمداد غيرهما من الصحابة وسائر الأمة . وحيث كان حظ الشيخين منه صلى الله عليه وسلم أوفر حظ ، واستمدادهما من مقامه الشريف أكمل استمداد ألحقا به صلى الله عليه وسلم فى كفر من سبهما وعدم قبول توبته دون بقية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وأما عدم قبول توبة الزنديق فى ظاهر الشرع فباعتبار ضعف إدراكه سر الفرق فى عالم الحكمة . فإن الله تعالى له فى طى هذا الوجود عالمان : عالم باطن يسمى عالم الفطرة ، وعالم ظاهر يسمى عالم الحكمة. وعالم الحكمة هو سر عالم الفطرة ، لأنه موقع النظر الإلهى ، وعالم الفطرة بمنزلة الشعاع لهذا النظر ، والعين حضرة الصفات . فمن أهمل موقع النظر فقد أعرض عن المقصود ، فإن المنظور إليه هو الناظر ؛ والزنديق أعرض عن المقصود من حيث أسراره . وهو الفرق ، قال تعالى : « **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** » . ومتى جاء ذلك الأجل فقد ذهبت السموات والأرض وما بينهما وبقى الحق الذى خلق كل ذلك به كما هو قبل أن يخلق ؛ والشرع هو ذلك الأجل بعينه . فإن كل جزء من أجزاء السموات والأرض وما بينهما له حكم فى الشرع . وذلك الحكم أجل لذلك الشىء تنتهى به مدة حياة ذلك الشىء ، ثم ينتقل بعد معرفة حكمه إلى أصله وهو العدم . وبقى الحق الذى خلق به ذلك الشىء يعامل بذلك الحكم من حيث حكم به على نفسه .

فمن عرف الله تعالى المعرفة الصحيحة إنما عرفه من أحكامه وهو الشرع . والشرع مختلف الأحكام ، وراد على كل شىء بحسبه ؛ فمن أعرض عنه بنظره إلى عالم الفطرة فقد كفر . لإعراضه عن الحق تعالى ، ولا تقبل توبته لأنه يزعم الإقبال على الله تعالى باشتغاله بعالم الفطرة . وعالم الفطرة ليس بمقصود . بل هو طريق إلى المقصود وهو عالم الحكمة . فإن عالم الفطرة أنوار . وعالم الحكمة أنوار أيضاً . لكن

مقلوبة . ظهرت فى صورة الظلمة ، والماشى فى الظلمة يحتاج إلى النور . والماشى فى النور لا يحتاج إلى الظلمة ، والعوالم جميعها إنما هى فى ظلمة ، فتحتاج إلى النور ، قال تعالى : « **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم** » .. وأما الحق تعالى فهو نور الوجود لا يحتاج إلى ظلمة .

والزنديق نازع الربوبية فأشرك ربه . وطرد عن قربه . قال تعالى : « **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** » . وتقبل توبته باطناً إذا رجع إلى تصفح أسرار عالم الحكمة ، وأقبل على الله تعالى من حيث أحكامه ؛ فعرفه فيها ، كما ذكرنا ، لحصول المقصود ، ولكن لا يعتبر ذلك من حيث الشرع ، لأن رجوعه عن ذلك إلى هذا ليس بشىء غير ما هو عليه ، والشرع متنزل عن العرش ، فلا يحكم على ما تحته إلا بما تعطيه الحضرة الرحمانية ، لأنها المستوية عليه دون بقية الحضرات ، وهى مقتضية للأنفع ، والأنفع لمن هذا وصفه عدم قبول توبته تمحيصاً له بنيران البعد والطرد فى عين القرب والإقبال .

ولهذا إذا جاء تائباً من تلقاء نفسه قبل ، لأنه أقبل ظاهراً فيقبل ظاهراً ، وحين أقبل باطناً قبل باطناً .

وأما الساحر فلا تقبل توبته لأنه خلط الحق بالباطل ، مشتق من السحر ، وهو قبيل طلوع الفجر ، واستعمال الشياطين بموالاتهم دعاء الباطل فى عين الحق . بخلاف أهل التسخير ، فإنهم يدعون إلى الحق

فى عين الباطل ، ولهذا يسمى الأول سحراً لكون الأصل عندهم الباطل، كما أن الليل أصل لوقت السحر . والثانى على العكس ، ومن خلط الحق بالباطل كان الظاهر عنده الباطل فستر به الحق . والستر هو الكفر . فلا توبة له إلا باطناً ، برجوعه عن خلط الحق بالباطل ، إلى خلط الباطل بالحق ، بحيث يصير الأصل عنده الحق . ولكن لا يعتبر ذلك شرعاً لما قدمناه من أن الحضرة الرحمانية مقتضية للأنفع ، فافهم سر الشرع والله الموفق .

فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

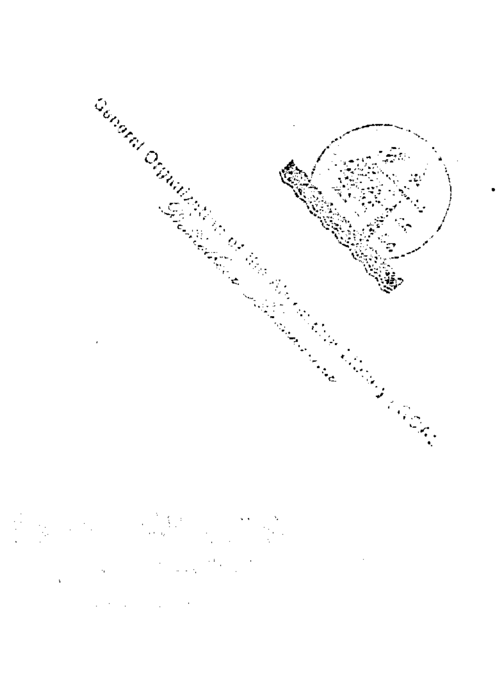
الموضــوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٧
بداية العودة إلى الله	٢١
معرفة الله ــ خلائق النفس الأمارة بالسوء	٢٤
العزم على تأديب النفس	
الوعظ والتذكير ــ عزل النفس عن مواطن المعصية ــ إدمان معاتبتها وتخويفها ــ النفس تأبى مفارقة الشهوات علاجها بالصوم والجوع ــ الحنين إلى بعض الشهوات دون بعض ــ عقوبات مشروعة للنفس	
بداية الهداية	٣٠
بين عقوبتها والتخفيف عنها ــ النفس تسلم قيادها	
خداع النفس	٣٣
الحنين إلى الشرف ــ العجب ــ توهم فضلها على غيرها من الناس ــ اعتقادها مصطفاة وصادقة	
دلائل الصدق فى التوبة	٣٦
الجد فى الطاعة ــ الحزن والخوف ــ سقوط الكلفة فى الطاعة ــ العلم بطريق التوبة ــ علم الرجاء والشكر والخوف	

الموضـــوع	الصفحة
عزة مقام التائبين	٤٢
دلائل صدق الشاكرين	٤٦
الملحق الأول فى أحكام التوبة	٤٩
معنى التوبة وحدودها	٥١
التوبة والعمل الصالح	٥٣
التوبة من الصغيرة ومن الكبيرة	٥٦
العود فى الذنب	٥٩
الملحق الثانى فى بعض الأحاديث الواردة فى التوبة	٦١
فضل الله ورحمته	٦٣
شؤم الإصرار على الذنب وعلى هوى النفس	٦٧
فضل المبادرة بالتوبة	٧٢
التوبة تمحو الخطايا	٧٤
فضل الاستغفار والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ...	٧٦
أحكام التوبة	٨١
معنى التوبة	٨٣
سر التوبة	٨٧
حال التوبة	٨٨
مقام التوبة	٩٠

رقم الإيداع ٣٦٣٩/ ١٩٧٧

الترقيم الدولى ٤٦ - ٧٠٥٣ - ١٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
ت : ٧٧٣٢٢١





دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٦٦٢٢٢٢٢
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١

الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية

دار المعرفة

40 شارع فيكتور هيكو - الدار البيضاء
ص.ب 4150 — ت 300567-309520